نحو مسرح إسلامي معاصر (٣)

خمس مسرحيات إسلامية ذات فصل واحد

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست
١- القطيع
٢- رفض في ليل الطغيان
٣- الزلزال
٤- الجوع والكلمة
٥- الديدان

بسم الله الرحمن الرحيم

القطيع

((المنظر : المسرح كله ، القاعة وخشبة العرض .. الجماهير لا تزال تتقاطر لاحتلال أماكنها خلال صفوف المقاعد المتراصة .. الستارة غير مسدلة وهنالك رجلان أو ثلاثة يعملون بخفة ونشاط .. يأتي أحدهم بميكروفون ويضعه في مقدمة خشبة المسرح ويسعى للتأكد من سلامته (ألو .. واحد اثنين .. ثلاثة .. الو .. الو ..) والآخر ينظم ستة مقاعد على شكل نصف دائرة إلى الوراء من الميكروفون .. والثالث منهمك في تغطية ما تبقى من الجدران باللافتات التي تحمل عبارات عنيفة صارمة (القتال حتى الرمق الأخير) (نموت حتى آخر رجل) (نذبح راكعين ولن نستسلم) (إذا مات غيفارا فكلنا غيفارا) (رصاصة واحدة خير من ألف خطاب) (إذا كان ايّندي كل المناضلين فليكن كل مناضل ايّنديا) (المجد والخلود لبطل المقاومة هوشي منه) (كم . إل . سونك يا أمل الملايين) .. وفي الجهة الأخرى في القاعة الواسعة نفسها ينهمك رجال آخرون في تعليق الشعارات واللافتات ، ويسمع صوت أحدهم يقول للآخر (هنالك ما يقرب من مترين مربعين إلى الجهة العليا اليمنى، لا أرى أن تدعوها) فيجيبه صوت آخر (انظر .. لقد غطينا كل مساحة في هذه الجدران العريضة ، وقد تعمدنا ترك ذلك الفراغ .. للطوارئ) (أية طوارئ ؟) (لعل شعاراً جديداً أو لافتة مهمة جداً ترد إلينا خلال الاحتفال .. اطمئن اننا منتبهون جداً) (برافو) !! .. الجماهير لا تزال تتقاطر رغم ان المقاعد كادت تشغل جميعاً ، بينما تسعى مجموعة من المستقبلين في توجيه المشاركين صوب أطراف القاعة ، وإلى ما تبقى من مقاعد ، ونستمع إلى عبارات (الرجاء المحافظة على النظام) (أنت .. اجلس هناك) (لاتزال ثلاثة كراسي في الخط الثاني إلى الوراء اجلسوا عليها أيها الرفاق) .. المستقبلون رغم أنهم يلبسون بدلات الخاكي ويتعمدون أن تبدو ملامحهم صارمة ، إلاّ أن آثار النعمة والميوعة بادية عليهم : ملامح وحركات ، فالشعور طويلة ، وقد كويت ورشّ عليها عطر نفاذ الرائحة .. الذقون الجميلة الممتدة مرسومة بعناية فائقة .. النظرات تنسى الموقف أحيانا فيكسوها الخمول الحالم ، وتدور في محاجرها بهدوء ، خجلة نعسانة ، ذكرت كثيراً من الحاضرين بعيون المها الحوراء .. الحركات فيها كثير من التغنج والتدلل .. ورغم أن كلا منهم

كان يحمل بندقية رشاشة .. إلا أن فكرة كانت تلح على عدد من الحضور وهي أن اجساماً رخوة ناعمة كهذه لا يمكن أن يكمن في لحمها المكتنز عظم واحد !!

((يقف عريف الحفل في مقدمة خشبة المسرح ، يلقي نظرة رضا على القاعة التي اكتظت بالجالسين والواقفين .. يضرب على الميكروفون ضربتين أو ثلاثا .. وهو يوزّع ابتساماته الودية المدوّمة في الفضاء ، أعلى بكثير من رؤوس الحاضرين .. وإلى الوراء يتقاطر ستة رجال أو سبعة ، بالملابس (الخاكي) والشوارب السوداء الكثة ويجلسون على الكراسي المعدّة لهم ..))

العريف : أيتها الجماهير العظيمة .. أيها المناضلون الشرفاء .. يا طلائع المقاومة في العالم .. أيتها الأشواك المنغرسة في عيون الامبريالية والرجعية .. جئنا اليوم لنحدثكم عن المهام الجسيمة الملقاة على عاتقنا وعاتقكم .. لنطلب منكم أن تظل أعصابكم مشدودة ، وعيونكم مفتحة وأيديكم على الزناد .. لأن أعداء الديمقراطية ينتظرون غفلة كهذه .. يبحثون عن ثغرة واحدة في صفوفنا المتراصة .. وهيهات .. أيتها الجماهير العظيمة .. أيها المناضلون الشرفاء .. إن القضية التي نجتمع اليوم للحديث عنها ، لا تحدد بفلسطين وحدها .. إنها أوسع بكثير .. إنها قضية الكفاح ضد الإمبريالية في العالم كله ..

((يقفز أحد الجالسين على كرسيه ويهتف وهو يرتجف انفعالاً (قتلوك يا نيرودا وسوف نفقأ عيونهم .. تسقط الطغمة المجرمة في شيلي .. أيها الشرفاء إن الدماء المسفوكة في ملعب سانتياغو سوف لا تجف حتى يسقط الحكم العميل هناك))

العريف : (مستمراً) إن فلسطين لا تعدو أن تكون نقطة صغيرة في خارطة العالم الأوسع، ولن تستغرقنا النقطة الصغيرة ..

((يواصل الهتّاف في القاعة نداءاته وقد بح صوته (أرسلونا لنقاتل في أنغولا) بينما ينادي أحد الرجال الستة الجالسين إلى الوراء ، عريف الحفل ويهمس في أذنه ..))

العريف : (مخاطباً الهتّاف) أيها الرفيق المناضل لم يحن الوقت بعد للتعبير عن مشاعركم .. لم يحن الوقت بعد ..

الهتّاف : مشاعرنا ومشاعركم سواء .. أرسلونا إلى أنغولا ..

العريف : لا ريب ، أننا نقدر فيك هذا الاندفاع العظيم ، ولكن دعونا نسمع أصواتنا للجموع المحتشدة في القاعة

((يجلس الهتّاف بينما يواصل العريف))

العريف : أيتها الجماهير الشريفة لا أريد أن أطيل عليكم فأنتم تتحرقون شوقاً لسماع كلمات الرفاق التي ستوضح أمامنا أكثر فأكثر طرائق النضال ، وسوف يبدؤكم الحديث الرفيق سامي عبد الهادي سكرتير لجنة الدعاية والإعلام ، وعضو الهيئة العليا لمقاومة الإمبريالية .. الرفيق سامي عبد الهادي ..

((تدوي القاعة بالتصفيق الحاد الذي يستمر أكثر من ثلاث دقائق ، وكلما خفت صوته، التهبت الأكف من جديد ، بينما يقف الرفيق سامي ، بزهوٍ ظاهر للعيان ، ينتظر أن يكف التصفيق ، مانحاً الحاضرين – في الوقت نفسه – فرصة أكبر لكي يعبروا عن إعجابهم ، وذلك بتشاغله برفع السماعة وخفضها بحجة البحث عن أفضل وضع يلائم وقفته..))

سامي : يستطيع كل واحد منكم ، أيها التقدميون ، أن يكون وسيلة إعلام حية في كفاحنا العظيم .. إن بمقدور كل واحد منكم أن يكون كتاباً يقرؤه الألوف ومنشوراً تمر على أسطره ملايين العيون ، وصحيفة سيارة تصل إلى كل قرية وتدخل كل دار..

هتّاف آخر : أرسلونا إلى القرى والأرياف .. ألصقونا على صدور العمال والفلاحين .. نحن مناشير الثورة العالمية وملصقاتها في كل مكان ..

سامي : (مستمراً) أيها العمال .. أيها الفلاحون .. أيها المثقفون الثوريون .. لن أطلب منكم أكثر من هذا ، لأنه إن تحقق وأصبح كل منكم أداة إعلامية في خط التقدم، فلكم أن تتوقعوا كسب معركتكم ضد الإمبريالية ، سلفاً .. أيتها الجماهير المناضلة كان الإعلام على عهد الحركات الفاشية برجوازياً قذراً .. كلكم تذكرون غوبلز .. كان

هتّاف ثالث : (يصرخ) يسقط غوبلز ، الخزي والعار للإعلام البرجوازي القذر ، لا غوبلز بعد اليوم ..

سامي : (بشيء من العصبية مغطاة بابتسامة خفيفة) اسمح لي أيها الرفيق .. أتم حديثي..

(يجلس الهتّاف وهو يتصبب عرقاً)

سامي : كان غوبلز يمثّل الإعلام الدكتاتوري ، يوم كان البطل البرجوازي يتصدر حركة التاريخ .. وهذا أمرٌ طبيعي في عهد فاشي كذلك الذي قاده هتلر .. أما اليوم فقد جئنا لنقول لكم .. إن الإعلام الجماهيري ، الدعاية بالجمهور وللجمهور هو الأسلوب العلمي الوحيد للتقدم بحركة التاريخ إلى الأمام .. لا أريد أن أطيل عليكم أيها الرفاق المناضلون ، فهنالك كلمات كثيرة يجب أن تقال ، وهنالك مناقشات حافلة ستدور بعد

الانتهاء من الكلمات .. مرة أخرى .. ليكن كل واحد منكم منشوراً ضد الإمبريالية والرجعية .. والسلام ..

((يرجع سامي إلى كرسيّه ، بينما ترتفع نوبة جنونية من التصفيق الحاد .. وعبثاً يحاول عريف الحفل أن يوصل صوته للحاضرين ..))

العريف : أيها الرفاق .. أيها المناضلون .. استمعوا إليّ .. دعونا نفد من الوقت أيها الرفاق .. إن المناضل حسين جبر ، مسؤول التوعية والتثقيف ، والممثل غير المنتخب لمجمعات المثقفين الثوريين ، وعضو اللجنة العليا لمنظمة البحث عن الحقيقة ، يريد أن يحدثكم .. الرفيق حسين جبر ..

((لم تكن موجة التصفيق والهتافات قد خفتت بعد ، وها هي تشتعل الآن من جديد .. وبعد أن تفتر قليلاً يتحدث حسين جبر))

حسين جبر : ما هي الثقافة الحقيقية ؟

((عشرات من الأيدي ترتفع في القاعة ، وقبل أن يأذن المتحدث لأحدها، تنهال التعاريف الجاهزة من الأفواه بشكل يوحي بالآلية والتلقين ، ويبدو أصحابها كما لو أنهم عادوا القهقرى إلى سني دراستهم الابتدائية وها هم الآن يرددون - بأمر من المعلّم - الواجبات التي كلفوا بحفظها عن ظهر قلب))

أحدهم : الثقافة الحقيقية هي محاولة لفهم التركيب الطبقي للمجتمع ، والتعجيل بحركة التاريخ التقدمية ، عن طريق تحفيز القوى البروليتارية ..

آخر : الثقافة الحقيقية هي رفض المفاهيم البورجوازية السخيفة البائدة ..

ثالث : الثقافة الحقيقية هي الفهم الضروري لدور العمال والفلاحين..

رابع : الثقافة الحقيقية هي التحرر من خرافة الأوهام والأساطير الدينية والغيبية عدوة الفكر المادي الحرّ ..

خامس : الثقافة الحقيقية هي تدفق تاريخي عفوي لمصلحة الكادحين أصحاب المصلحة الحقيقية في الثقافة ..

سادس : الثقافة زائداً القليل من البورجوازية تساوي أمية ..

سابع : الثقافة الحقيقية هي دراسة وتحليل تأثيرات الضرورات التحتية لقوى الإنتاج على الأشكال الفوقية لقوى المجتمع .. ((يكون حسين جبر خلال ذلك كله في موقف لا يحسد عليه .. جف صوته ، ونشف ريقه وهو يصرخ في الحاضرين ..))

حسين جبر : أيها الرفاق ، طرحت عليكم السؤال لا لأتلقى أجوبتكم ، إنما هو بداية أردت أن أبني عليها حديثي في المسألة الثقافية .. أيها الرفاق ..

((وبعد جهد جهيد يحظى بصمت تسوده الهمسات فيستأنف حديثه))

حسين جبر : ما هي الثقافة الحقيقية ؟

((مرة أخرى يحاول أحد الجالسين أن يجيب ، دون إرادة منه ، فيهرع إليه ثلاثة من منظمي الحفل ، ويرغمونه على أن يسكت ، ونسمع من بعيد ، من أعماق القاعة صراخاً، وتبادل عبارات تكاد تكون شجاراً .. ثم ما نلبث أن نرى الهتّاف يغادر القاعة، غاضباً مصفر الوجه ..))

حسين جبر : (بنفاد صبر) ما هي الثقافة الحقيقية ؟ الثقافة الحقيقية هي محاولة لفهم التركيب الطبقي للمجتمع ، والتعجيل بحركة التاريخ التقدمية عن طريق تحفيز القوى البروليتارية .. وهي رفض للمفاهيم البورجوازية البائدة .. الثقافة الحقيقية هي الفهم الضروري لدور العمال والفلاحين .. هي التحرر من خرافة الأوهام والأساطير الدينية والغيبية عدوة الفكر الحرّ .. عفواً .. عدوة الفكر المادي الحرّ .. الثقافة الحقيقية هي تدفق تاريخي عفوي لمصلحة الكادحين أصحاب المصلحة الحقيقية في الثقافة .. وكلنا نعرف أن الثقافة ، أية ثقافة ، مضاف إليها القليل من البورجوازية تساوي أمية .. في حين أن الثقافة الحقيقية تتمثل في دراسة وتحليل تأثيرات الضرورات التحتية لقوى الإنتاج على الأشكال الفوقية للمعطيات ، عفواً ، لنشاطات المجتمع ..

أحد الهتّافين : الضرورات التحتية ولا شيء غير الضرورات التحتية .. أما الأشكال الفوقية فهي بورجوازية عفنة ..

حسين جبر : (مستمراً) إننا ما جئنا هنا إلاّ لكي نؤكد لكم هذه المفاهيم في ميدان الثقافة الثورية وندعوكم لأن تتشبثوا بها ، لتحيوا من أجلها ، وتموتوا في سبيلها جنوداً مجهولين .. إن أعداء التقدم يمتطون الثقافة اليوم في محاولة يائسة لوقف حركة التاريخ ، ولن نوقفهم عن محاولاتهم الرجعية هذه إلاّ بنشر وتعزيز أساليبنا التثقيفية ، وعليكم أيها العمال الكادحون ، أيها الفلاحون ، أيها الجنود الثوريون ، تقع هذه المسؤولية ..

((يقف أحد الجالسين ، ويبدو من مظهره ، وبخاصة ياقة قميصه المنشّاة، أنه ربما يكون مدرساً أو طالباً جامعياً متقدماً ويسأل))

الرجل : والمثقفون أيها الرفيق ، ألا يتحملون جزءاً من مسؤولية الثقافة ؟

حسين جبر : (يمد بوزه إلى الأمام بنوع من الاحتقار الخفي) المثقفون .. الثور .. يون .. ربما .. أما المثقفون عموماً فنشك في مدى إخلاصهم لقضية الثقافة لأن أشدهم إخلاصاً لا بدّ وأن تسمم أفكاره ، بدرجة أو أخرى ، رياح الثقافة البورجوازية القذرة ..

((يجلس الرجل ويبدو أنه لم يقتنع تماماً بوجهة نظر الرفيق حسين))

حسين جبر : إن اللجنة العليا لمنظمة البحث عن الحقيقة شرفتني بأن عهدت إلي عرض فكرة الانتماء إلى المنظمة ومطالبتكم بأن تكونوا أعضاء فيها ، وهو كما لا يخفى عليكم شرف عظيم وخدمة جادة على طريق الثقافة .. طريق الثورة .. ماذا ترون ؟

((يقف الجميع ، ويمدون أيديهم إلى أعلى بحركة جماعية متناسقة تذكرنا باللوحات الرياضية التي تقدمها المدارس في ساحات الألعاب وتصدر عنهم جميعاً ، وفي وقت واحد، عبارة (كلنا ننتمي إلى الجمعية .. كلنا نبحث عن الحقيقة .. لنا الشرف في أن نكون أعضاء عاملين فيها .. أيها الرفيق) .. يجلسون معاً بنفس الأسلوب))

حسين جبر : شكراً جزيلاً أيها الرفاق ، وستوزع عليكم فيما بعد بطاقات الانتساب .. شكراً مرة أخرى..

((ينسحب إلى كرسيه وسط التصفيق بينما يتقدم عريف الحفل إلى الميكرفون))

العريف : أيها المناضلون .. وها قد حان الوقت إلى صوت السلام .. صديق الشعوب الحقيقي ، عدو الإمبريالية اللدود .. ومن أحرى من الرفيق ميخائيل سلمان سكرتير لجنة السلم العالمية ، وعضو هيئة العمل والتنسيق بين الشعوب ، من احرى منه بالحديث عن قضية الجماهير الأبدية ؟

ميخائيل : تعلمون أيها المناضلون الشرفاء أن قضيتنا أولاً وأخيراً هي قضية السلم في العالم ، لأن الحرب لم تكن يوماً لصالح الانسان ، إنها أداة الامبريالية لسحق الشعوب ووسيلة الشوفينية لتنفيذ العدوان ، ومطية الرأسمالية لانتزاع اللقمة من أفواه المحرومين .. ولكن السؤال المطروح هو كيف نصون السلام ؟

أحد الجالسين : بتحطيم أدوات الحرب ..

آخر : بالقضاء على الشوفينية

ثالث : بأن يتسلم العمال زمام الحكم في العالم كله ..

رابع : بوقف الحرب نفسها ..

ميخائيل : أيها الرفاق دعوني أتم حديثي وأجيبكم على السؤال كيف نصون السلام ؟ لا ريب أن

هنالك أكثر من أسلوب تقود مجتمعة إلى الهدف المنشود .. أن نسعى إلى تحطيم أدوات الحرب ، ونقضي على الشوفينية ، ونسلّم العمال زمام الحكم في العلم كله ، ونعمل من أجل وقف الحرب نفسها .. إننا في اجتماعنا الأخير في فيينا ، ناقشنا المسألة من كافة جوانبها وأصدرنا بشأنها هذه القرارات التاريخية الخطيرة وأرفقناها ببرقيات طُيّرت إلى كافة زعماء الدول المحبة للسلام، نبارك خطواتها ونلتمس منها أن تواصل نضالها العادل من أجل السلم، وقد وجهت إلى اللجنة التنفيذية للسلم العالمي دعوات لزيارة عدد كبير من هذه الدول، وكان لزاماً علينا أن نستجيب لهذه الدعوات .. فطفنا في كثير من العواصم وقضينا ثمانية أشهر عبر جولة نضالية لتعزيز السلم والمحبة بين الشعوب .. ولا أظن أخبار نشاطاتنا وزياراتنا قد خفيت عليكم ، فقد تناقلتها وكالات الأنباء والصحف والنشرات وأجهزة السينما والتلفزيون .. وانني أتشرف باسم اللجنة التنفيذية أن اعتبركم جميعاً أنصاراً شبه عاملين في قضية السلام ، فكونوا أغصان الزيتون الخضراء في عالمنا الذي تلهبه الحروب ..

((أحد الجالسين يقف دونما استئذان .. تبدو العصبية في حركاته وإشارات يديه ..))

الرجل : (بصوت متهدج ، لكنه جهوري غاضب) وقضيتنا مع الصهيونية أيها الرفيق ميخائيل، أهي في حاجة إلى زيارات مترفة للعواصم الكبرى أم كفاح دمويّ شاق على الساحة نفسها ؟ أهي بحاجة إلى غصن الزيتون أم إلى الرشاش ؟ إلى نصير السلام أم إلى المقاتل ؟

ميخائيل : (وقد فوجئ بالسؤال) ماذا ؟ الرشاش ؟ الدموي ؟ المقاتل ؟ إننا نتحدث عن السلام، عن المحبة بين الشعوب فما علاقة الرشاش والدم والمقاتل بالسلم والمحبة؟

الرجل : وما علاقة اليهود بأرضنا التي سرقوها ، وأعراضنا التي انتهكوها ، وحرماتنا التي داسوها ؟

ميخائيل : (بعصبية ونفاد صبر) هذه مسائل بورجوازية لا علاقة لها بالموضوع أعراض .. حرمات .. مقدسات ..

الرجل : (وقد امتلك زمام الموقف ، إلا أن غضبه يزداد عنفاً) ولكنها سرقت وانتهكت وديست أيها الرفيق .. أفلا يجدر بنا أن نتحدث عن الصيغ التي نسترد بها حقوقنا ؟؟ وهل تعتقد أن المقاتل الصهيوني سيسلّم بمطالبنا عندما نتقدم إليه بغصن السلام ؟ أم أن نغرز في صدره عشر رصاصات؟

ميخائيل : إذا كان حكام اسرائيل طغمة امبريالية عفنة فما ذنب شعب اسرائيل المسالم ؟ إننا لن نسمح لأية روح شوفينية أن تتخلل حفلنا هذا ..

الرجل : ما كنت شوفينياً في يوم من الأيام ، والذي يقاتلنا ويسرقنا ويشردنا ليس حكام اسرائيل فحسب ، ولكن كل يهودي جاء باختياره إلى فلسطين لكي يتحمل عبء الدفاع عنها .. وإنني أسألك أيها الرفيق ميخائيل عمن يتخذ القرارات في اسرائيل ، أليسوا أعضاء الكنيست ؟ ومن الذي يأتي بأعضاء الكنيست ؟ أليست الغالبية العظمى التي تصوّت لهم من يهود اسرائيل؟

ميخائيل : (بغضب مكبوت) بورجوازي قذر .. مد..سو..س !!

الرجل : كيف أكون بورجوازياً ولم تدخل جيبي يوماً خمسة دنانير دفعة واحدة ؟ كيف أكون مدسوساً وأنت تعلم ، قبل غيرك ، كيف أنني قضيت عشر سنين من زهرة عمري متخفياً في السراديب ؟ كيف أكون بورجوازياً وأبي يعمل منذ عشرين عاماً في تعبيد الطرق .. يعود عصر كل يوم ، وأتحداك حينها ، أن تفرق بين سواد عينيه وبين القار الذي يلطخ وجهه ..

ميخائيل : ومع ذلك فأنت بورجوازي ومدسوس .. بورجوازي قذر

الرجل : (ينفجر غضبه دفعة واحدة) دعوتمونا إلى هذا الحفل باسم قضية فلسطين ولم نسمع شيئاً عن فلسطين ، فلسطين القهر والتشرد والظلم والعذاب ، أكثر من أنها لا تعدو أن تكون نقطة صغيرة في خارطة العالم الأوسع ، وأنه يجب ألا تستغرقنا النقطة الصغيرة .. أية نقطة صغيرة هذه التي هي نومنا ويقظتنا ، وفرحنا وحزننا ، وضحكنا وبكاؤنا ، وحياتنا ومماتنا ؟ أية نقطة صغيرة هذه التي تشغل كل مساحة في وجودنا وتمتد لكي تتجاوز الحاضر الراهن إلى المصير البعيد ؟ أجبني .. أية نقطة صغيرة هذه التي هي عرضنا وشرفنا وكرامتنا وآدميتنا ؟ ثم ها أنتم تتآمرون على القضية برمتها ، باسم السلام مع الشعوب ، بما فيها شعب اسرائيل .. وليست هذه هي أول مرة تمارسون فيها تآمركم الخبيث هذا .. إنني أصرخ في وجوهكم .. أتحداكم .. أبصق عليكم ..

((كان همس الجمهور قد أخذ يرتفع ، منذ بدء النقاش ، شيئاً فشيئاً ، وها هو الآن ينفجر دفعة واحدة ، منذداً بالرجل ، طالباً عقابه .. ومن خلال الأصوات الغاضبة والتلويح بالأيدي ضد الرجل ، يسمع صوت ميخائيل في الميكرفون وهو يردد))

ميخائيل : بورجوازي .. قذر .. مدسوس .. أيها الرفاق أخرجوه من القاعة..

الرجل : لا داعي لأن يخرجوني ، سأخرج بنفسي ، سأمارس لأول مرة منذ عشر سنوات ، حقي في الاختيار ، لن أرضى بعد الآن أن أكون نعجة في قطيع من الأغبياء يصفقون ويرقصون حتى لجلاديهم والمتآمرين على إخوانهم وبني جلدتهم هناك، في

فلسطين ، وهم يقتلون ويشردون .. مرة أخرى .. أبصق عليكم وافعلوا بي ما تشاءون ..

((يخرج بينما يرجع ميخائيل إلى كرسيه ، مصفر الوجه مضطرباً ويتقدم العريف لتدارك الموقف))

العريف : أيها المناضلون الشرفاء .. أيها الثوريون الحقيقيون .. أيها المقاتلون على ساحة العالم كله .. سوف تلتقون ، عبر نضالكم دوماً ، بمحاولات ارتداد كهذه التي شهدتموها الآن .. ارتداد بورجوازي رخيص تفوح منه رائحة الشوفينية القذرة.. لكننا بالمرصاد ، ولن ندع الامبريالية تمرر علينا مؤامراتها وألاعيبها .. وهل من داع لأن نؤكد لأمثال هذا المأفون أن دعوتنا للسلام لن تتعارض مع النضال الدائم من أجل سحق أعداء الشعوب في العالم ، وأن كل واحد منكم، كل مناضل شريف ، كما أنه رجل سلام فانه في الوقت نفسه مقاتل من طراز أول، يده دائماً على الزناد وهو مستعدّ في أية لحظه لأن يتبع نداء غيفارا العظيم ، ورفاقه شهداء الإمبريالية العالمية ((ومن خلال السكوت الشامل حيث تتوالى تعابير العريف الغاضبة ، وعلى حين غفلة تنطلق صلية رشاش وسرعان ما تنقلب الأمور رأساً على عقب .. يسود القاعة اضطراب عاصف وركض بكل اتجاه وتدافع بالأيدي والأرجل .. وتضيق الأبواب بالهاربين فيسقط واحد أو اثنان وتدوسهما الأقدام .. أما على خشبة المسرح فكان الخطباء الخمسة قد اختفوا منذ اللحظة الأولى ، وتلفت العريف ذات اليمين وذات الشمال وهو يرتعد هلعاً ثم لحق بهم هو الآخر.. خشبة المسرح الآن خالية .. وأما القاعة فقد خلت إلا من صبيين يئنان أنيناً موجعاً من كثرة ما ركلتهما أقدام الهاربين ، وإلاّ من أحد منظمي الحفل وهو يصرخ بأعلى صوته دونما جدوى..))

منظم الحفل : أيها الرفاق .. أيها الرفاق .. هذه غلطتي .. ليس في الأمر ما يوجب الخوف أيها الرفاق هذه خطيئتي .. عاقبوني إذا شئتم ، ولكنني لم أكن متعمداً أبداً .. لقد دفعتني كلمات العريف الحماسية إلى غضب عاصف ضد كل بورجوازي قذر، فضغطت دون وعي منّي على الزناد .. أيها الرفاق .. عاقبوني !!

((بعد لحظات يرجع الخطباء ، أعضاء اللجان ، وقد تمالكوا أنفسهم إلى حد كبير ، فيجلسون على كراسيهم ، يتلوهم العريف الذي يقفز بخفة ورشاقة إلى الميكرفون بينما تبدأ القاعة في الأسفل تتلقى أفواج العائدين إلى أماكنهم بعدما كشف لهم العريف حقيقة الموقف..))

العريف : أيها المناضلون الشرفاء .. إن كلا منكم كما أنه رجل سلام فانه في الوقت نفسه مقاتل من أول طراز .. يده دائما على الزناد وهو مستعد في أية لحظة لأن يتبع نداء غيفارا العظيم ..

((تقف الجماهير في القاعة على شكل حلقات متعددة يعلو كلا منها رجل محمول على الأكتاف ، و بينما تنزل الستارة نسمع أسفل المسرح نداءات وأصواتاً وهتافات لا نكاد نتبين منها سوى عبارات يعيش .. يسقط .. أرسلونا إلى .. الخزي والعار .. كلنا وراءك يا أيّندي..)) ..

-الختام -

رفض في ليل الطغيان

المنظر : " بيت متواضع في أحد الأحياء الشعبية في القاهرة ، تبرز أمامه حارة واسعة نسبياً ، تقف في أحد أطرافها سيارة (لوري) خضراء واسعة ، مشبكة جدرانها بالحديد المخرم .. الساعة الواحدة والعشرون دقيقة من ليلة الثلاثاء آب ١٩٦٦ ..

عندما تنفرج ستارة المسرح يبدو باب البيت مقفلاً ، وتسمع من داخله صرخة طفل صغير لم يتجاوز – على ما يبدو – من عمره العامين. ويسمع في الوقت نفسه انطفاء محرك السيارة اللوري .. يقفز منها أربعة رجال ، اثنان منهم بالبدل الرسمية (الخاكي) والآخران بالملابس الشعبية .. ومن المقعد المجاور للسائق ، حيث يبقى السائق نفسه في مكانه ، ينزل على مهل ضابط يحمل على كتفيه نجمتين ، يتجه إلى باب البيت ومن ورائه الرجال الأربعة ، يحمل اثنان منهما رشاشتين من طراز قديم ، ويحمل الآخران ذوا الملابس العادية مسدسين صغيري الحجم ، يبدو على الرجال الخمسة الاهتمام البالغ ، والتوتر النفسي ، والحذر .. ويتلفتون بسرعة ذات اليمين وذات الشمال .. إلى أعلى وإلى أسفل ، بحركة فيها صرامة وآلية في الوقت نفسه ، متتبعين عيون قائدهم حيث اتجهت .. وإذ يزداد صراخ الطفل ، يلتفت الضابط إلى رجاله الذين وقفوا وراءه الآن ، ويقول لهم وهو يقرع الباب .. ".

الضابط : **ليس ثمة خطر ، ولكن خذوا حذركم على أية حال فربما بدرت (منه) بعض المقاومة.**

الرجال الأربعة : **(بصوت واحد) حاضر !!**

أحدهم : **ليست هذه المرة الأولى التي نصطاد فيها الأفاعي السامة يا سيدي.**

الآخر : **كانت صدفة وجرح بالأمس أحد أفرادنا ، ولن يتكرر ذلك ..**

الضابط : **(وهو يضحك ضحكة متكسرة) ربما يصلّي الآن ، ولذلك سأعطيه فرصة أوسع كيلا يقال أننا كفرة وأن عهدنا العظيم يسمح لحراسه بأن يقطعوا على الناس صلواتهم ..**

(يفتح الباب فجأة ويبرز إبراهيم : شاب في الثانية والثلاثين من عمره .. يصوب الرجال الأربعة أسلحتهم تجاهه).

إبراهيم : **لا داعي للحذر ، ها أنا ذا أمامكم.**

(يشير الضابط إلى رجاله فيقومون بحركتهم الروتينية : الإحاطة بالمتهم ووضع القيد في يديه ..).

إبراهيم : لحظة واحدة لأودع زوجتي وطفلي ، وسأعود.

الضابط : (يصرخ بوجهه) لا .. لن نسمح لك بذلك .. فالذين يحاولون أن يرهبوا الناس لا يعرفون عطف الزوجية ولا حنان الأبوة ..

إبراهيم : (بصوت مر) لحظة واحدة ، تعالوا معي لألقي نظرة .. فربما لا أعود إلا بعد وقت طويل .. ومن يدري ؟ أنا لا يهمني ما سيحدث لي .. ولكن

(يسمع صوت أقدام مضطربة ، مسرعة ، تقترب من الباب ، ممتزجة ببكاء الطفل، المتقطع ، الذي يبدو أن البكاء قد أتعبه).

الزوجة : (بصوت مختنق) إبراهيم !

إبراهيم : (محدقاً بالطفل) لا ترهقي نفسك بالبكاء ، اطمئني .. يومان وسأعود (محدثاً نفسه) ربما كان هذا هو الحوار الأخير معها .. وكيف تبقى بعد اليوم أسرة تنعم بالاستقرار وهم لا يأمنون أن تقرع أبوابهم في منتصف الليل ؟ (يخاطب زوجته) أرجو أن تعتني بالطفل ، أعدك أنني سأعود بعد يومين ! (محدثاً نفسه) أنت لا تضمن بقاءك حياً عندما تطلع الشمس بعد ساعتين أو ثلاث ، فكيف تعدها أنك ستعود ؟ إن قوة هائلة تدفعك إلى أن تمنحها هذا الوعد لا لكي تطمئنها وحدها ، ولكن لتطمئن نفسك أنت أيضاً .. إن الانسلاخ عن الزوجة والطفل ، أيسر منه انسلاخ جلودنا عن لحمنا .. يا إلهي .. كيف يفصل الآباء عن أبنائهم بهذه القسوة ؟

(يسحبه أحد الرجال بقوة فيخرجه من دوامة أفكاره .. يسوقونه صوب السيارة المشرعة الأبواب ، وعندما يلتفت ليلقي نظرة الوداع على زوجته وطفله ، كان الطفل قد أتعبه البكاء فصمت ، وكان الباب العتيق قد بدأ يغلق بيد مرتعشة .. ويعود الضابط إلى مقعده بجوار السائق ، ويجلس الرجال الأربعة في الجهة الخلفية من السيارة ، اثنان إلى جانب إبراهيم واثنان قبالته .. يشير الضابط إلى السائق فيشغّل محرك السيارة .. وطيلة الدقائق التالية نستمع إلى صوت المحرك وصرير الهواء بما يوحي بانطلاق السيارة إلى هدفها .. يتنفس إبراهيم بعمق ، وتبدو على وجهه مسحة من ابتسامة خفيفة أقرب إلى الكآبة).

إبراهيم : (محدثاً نفسه) ها أنت ذا قد تخلصت من اللحظة الصعبة الوحيدة ، لحظة الفراق القاسية .. اللحظة التي يسلخ فيها الزوج عن زوجته ، والأب عن ابنه ، على بكاء طفل أتعبه البكاء .. وما وراء هذا .. يهون ..

الضابط : (وهو يلتفت إلى إبراهيم) أراك تدمدم بكلام غير مفهوم ، تقتلون الناس وتسبحون لخالق الناس ..

أحد الرجال : ألا تؤمن به ؟

إبراهيم : وهل ثمة عاقل لا يؤمن به ؟

الضابط : إذن لماذا تعملون (ضده) ؟

إبراهيم : (يبتسم وهو يلتفت لكي يحدق من خلال جدار السيارة المخرم في نجمتين كانتا تخفقان وتلتمعان على الحافة الشرقية للسماء .. ويحدث نفسه) فيما مضى كانتا توحيان لك بالقصائد العاطفية كتلك التي كان يكتبها عن ليلى مجنون !! أما الآن فانهما لا توحيان لك إلا بشيء واحد: أن تجتاز كل المسافات والأبعاد لكي تلتقي بإخوتك الذين يتعذبون !! وهل ثمة مجال للشعر أو الغناء ، وقبل أيام استشهد أربعة من رفاقك تحت التعذيب ، وأحرقت جثث بعضهم ، وقيل لأهليهم لما جاءوا يسألون عنهم : لقد أفرج عنهم ؟ .. أنت لا تزال تذكر كيف انعصر قلبك وأحسست بتفاهة الحياة عندما أفلتت من يديك قبل أكثر من عشر سنين فرصة حقيقية لتحقيق إرادتك .. ولا تزال تذكر كيف تألمت كثيراً كلما كنت ترقب الفرص الأخرى ، فإذا بخيال أبيك وأمك يسدان عليك الطريق .. مشاعرك يا إبراهيم ، وقد جمدت إحساسك تجاه الطفل والزوجة إلى درجة الصفر ، تتركز حول شيء واحد : (الشهادة) وإذا لم تستشهد أنت ، ويستشهد مئات من الذين يقطعون الطريق الطويل ويطهرونه من أجل شرف الإنسان ، فمن ذا يحرره من عبوديته للطواغيت والأرباب ؟ ومن ذا يخلصه من تخبطه وضياعه ؟ ومن ذا يكشف للعالم معنى الحياة الحقيقية تحت ظلال شريعة الله ؟ وكيف سيتم خروج ابن آدم من مستنقع التفاهة ، والعفن ، والمذلة ؟ .. إذا لم تكن أنت الضحية ، وكل المجاهدين في الأرض ، فمن ذا يخلص العالم من أن يكون مرتعا للذباب ؟! وإذا لم تجلد أنت ، وينغرز الرصاص في صدر أخيك ، ويعلق أخوك الثالث على الأعواد ، فمن ذا يعيد الإنسان المعذب إلى بارئه ؟

الضابط : (دون أن يلتفت وبصوت حاد يقطع عليه حبل تفكيره) كن شجاعاً واعترف .. سوف يستدعونك للتحقيق فور وصولنا ، إن باستطاعتهم أن ينتزعوا الاعتراف منك انتزاعاً ، ولكن لا تنس أنك قطعت وعدا مع زوجتك بأنك ستعود !!

إبراهيم : (بصوت هامس) آه .. إلا هذه ، هذه فقط !! (ثم بصوت ساخر مرتفع بعض الشيء) سأكون شجاعاً وسأعترف (يعود إلى تحديث نفسه) ويقولون إن البشرية

قد تقدمت وإن إنسان القرن العشرين يقف على قمة التاريخ يصنع مصيره بحرية ! وكيف يقف الإنسان على القمة والقيم تداس بالأقدام والمعاني تمسخ هكذا ؟ كن شجاعاً واعترف .. وعندما يتحول الجبن إلى شجاعة ، والهزيمة إلى انتصار ، فليقتل الإنسان نفسه أو ليبتغي نفقاً في الأرض أو سلما إلى السماء ..

الضابط : (بعد أن سرح في الطريق المظلم الممتد أمامه) هذا ما كنت اعتقده ، فان الإصرار والعناد لا يجديان شيئاً .. أولاً : سيبعدانك عن لقاء زوجك وطفلك ، وثانياً : سيوردانك موارد الهلاك ، وثالثاً : وكما قلت لك قبل قليل ، هنالك الوسائل والأدوات التي يستطيع المحققون بها أن ينتزعوا منك كل ما تضمه بين جوانحك .. إنهم قادرون على أن يسلخوا جلدك لكي يفتشوا عما خبأته في طيات لحمك ..

(تسمع عن قرب أصوات غير مفهومة ، تبدأ بالوضوح شيئاً فشيئاً .. تنكشف ستارة في أعماق المسرح عن بناء قاتم ، ممتد ، تحيطه الصحراء من كل مكان .. يتوقف محرك السيارة ، لدى الوصول إلى (المعتقل) ، يقفز أحد الرجال ويتجه مسرعاً إلى الحارس الذي يقف على باب المعتقل ويطلب منه ، على ما يبدو ، أن يفتح الباب ..).

الضابط : (يغادر مكانه إلى جوار السائق ويتجه إلى باب السيارة الخلفي) أقفز .. وأعدك بشرفي انني سأعمل على إخراجك في أقرب وقت ما دمت قد قررت ان تعترف.

إبراهيم : (متحدثاً إلى نفسه وهو يغادر السيارة والرجال الثلاثة من ورائه) يا لطيبة قلبه !! ألا يعلم أن في كياني بركانا يتمنى لو ينفجر ويحرق الصنم الكبير ، وكل الذي يسبحون بحمده ؟ بعد قليل سيعرف الضابط قيمة شرفه ..

(يفتح باب المعتقل ، ويمرق منه رجلان إلى الداخل .. وعلى بعد قليل يسير إبراهيم بخطى واسعة إلى جانب الضابط الذي راح يدمدم بكلام غير مفهوم ، ومن ورائهما الرجلان الآخران وهما يصوبان أفواه رشاشيهما على ظهر إبراهيم .. يدلفون جميعاً إلى رواق قديم ، جدرانه باهتة ، وأضواؤه مغلفة بأكفان من غبار الصحراء .. ثم إلى ممر ثالث ، حيث يفتح أحد الحراس باب زنزانة رطبة قميئة .. ونسمع في جنبات الرواق أصوات أنين خافت ، وصرخات حادة مكظومة ..).

الضابط : أدخل.

إبراهيم : (يدخل وهو يحدث نفسه) تسرح بك الأفكار ، تنقلك على جناحي الثقة والإيمان إلى اليوم الذي سينتصر فيه المؤمنون فلا يبقى ثمة مكان لطرفي العذاب : الجلاد والمجلود !!

(وقبل أن ينسحب الضابط برجاله يمد رأسه إلى داخل الزنزانة).

الضابط : أتسمع ؟ هذه صيحات الذين لا يريدون أن يعترفوا ، إنهم يستخدمون أساليبهم (تلك) لكي ينتزعوا منهم الاعترافات رغماً عن أنوفهم.

إبراهيم : (محدثاً نفسه) لو لم تكن هنا في (السجن) لما عرفت ماذا يجري فيه ، فان الشعب كله يؤمن (به) ، ولن يعتقد أحد أن حراس عهده يمكن أن يمسوا بأذى أحداً من العالمين (يرفع صوته مخاطباً الضابط) أعتقد أن هذه المسألة تخصني وحدي .. ولا داعي لأن تدخل نفسك فيها ..

(ينسحب الضابط بوجه غاضب ، ويغادر الممر ، ونستمع إلى صوت إبراهيم قبل أن يقفل الحارس باب الزنزانة).

إبراهيم : وقال يوسف ، بعد أن عرضت عليه فتنة الأرض : (رب ! السجن أحب إلي مما يدعونني إليه) !

يعتم المسرح لدقيقة أو دقيقتين ، ثم ما نلبث أن نجد الأضواء تسلط على غرفة تحقيق واسعة في السجن نفسه ، الذي تبدو بعض زواياه .. إلى الوراء قليلاً .. في صدر الغرفة وضع مكتب كبير استقر خلفه أحد رجال التحقيق بجسمه الضخم ونظراته الحادة. وإلى اليمين جلس ثلاثة من أتباعه بغير انتظام .. كانوا يتكلمون فيما بينهم بصوت غير مسموع .. وعلى الأرض تبدو ثمة بقع حمراء من الدم الذي لم يجف بعد .. إلى أسفل المكتب نرى مجموعة من الأدوات والآلات المبعثرة: عصي غليظة ، خراطيم مياه ملفوفة بأسلاك خشنة ، صدئة .. مسامير من مختلف الأحجام ، وإناء زجاجي فيه سائل غامق الصفرة .. يفتح الباب ويدفع إبراهيم إلى الداخل بعنف ، من قبل اثنين من الحراس ، ثم يقفل الباب).

رجل التحقيق : (يبتسم وهو يخاطب إبراهيم الذي يقف الآن وسط الحجرة) أهلاً أهلاً .. أهلاً بإبراهيم .. لقد تحدث عنك الضابط الذي جاء بك ، وامتدحك بما فيه الكفاية ، ولكي يتحقق ظنه فيك ، وبالطبع ظننا نحن أيضاً ، نرجو منك أن .. باختصار نرجو منك أن تعترف !!

إبراهيم : (مبتسماً هو الآخر) سلوا ما شئتم (ثم محدثاً نفسه) ليتهم يعرفون أن مؤمنا حقيقياً لا يمكن أن يكون عند حسن ظن أحد من عبيد الطاغوت !

رجل التحقيق : حسناً ، ما هو دورك في المخطط الذي رسمه الإرهابيون ، ومن هم الذين اتصلوا بك ليكلفوك بتنفيذ هذا الدور ؟

إبراهيم : عن هذا الموضوع بالذات لا أعلم شيئاً !!

(ترتفع أصوات الاستنكار من المحققين بجوار المكتب).

أحدهم : يظهر أنه لا يريد أن يخرج من هنا بسلام.

رجل التحقيق : (بلهجة ودية مبطنة بالتهديد) إذن أذكر فقط بعض الذين عملت معهم ، اثنين أو ثلاثة منهم فقط ، ونحن نعدك بأن نعيدك إلى بيتك هذه الليلة بالذات.

إبراهيم : إنك تطلب أمراً صعباً .. أن أضع في قبضتكم مزيداً من الأبرياء ..

رجل التحقيق : (يصرخ بنفاد صبر) تكلم .. وإلا ..

إبراهيم : (يصرخ هو الآخر) وإلا ماذا ؟ تعذبونني ها أنا ذا أمامكم .. تمزقون جسدي ؟ ها هو ذا أمامكم .. وهذه البقع الدموية تشهد بأنكم سلختم جلود من حققتم معهم من قبل ، دون أن يعترفوا .. وأما الذين اعترفوا فقد سقتموهم إلى حتوفهم .. والأمر سواء ..

رجل التحقيق : إنكم تخرجون على قواعد ديننا السمح الحنيف الذي ألزمنا بإطاعة الله ورسوله وأولي الأمر فينا !!

إبراهيم : (غير ملتفت إليه) لقد قالها الرسول (صلى الله عليه وسلم) (ألا وإن القرآن والسلطان سيفترقان ، فكونوا مع القرآن !! ألا وانه سيؤمر عليكم حكام ظالمون إن أطعتموهم أضلوكم ، وان عصيتموهم قتلوكم. قالوا : ما نفعل يا رسول الله ؟ قال : كما فعل أصحاب موسى وعيسى (يصرخ) نشروا بالمناشير ، وحملوا على الأخشاب!!).

رجل التحقيق : معنى هذا أنك لا تريد أن تعترف ؟

إبراهيم : كلا ..

(يشير رجل التحقيق إلى أحد أتباعه ، فيتحرك هذا باتجاه إبراهيم ..)

رجل التحقيق : (بهدوء ساخر) انزع .. قميصك رجاء.

(وقبل أن يتم عبارته يتناول أحد الخراطيم الملفوفة بالأسلاك ويهوي بها على جسد إبراهيم ، فينتفض للضربة الأولى دون أن يتأوه .. ثم ما يلبث أن يتلقى سيلاً من الضربات القاسية في مختلف أنحاء جسمه وهو يتقلب على الأرض بكل اتجاه ..).

إبراهيم : (يدمدم بصوت متقطع يمط كلماته مطا) ومن قبل حاولوا أن .. يقتلوا الرسول .. بسيل من الحراب .. والنبال .. فوقف .. أمامه .. أبو دجانة وترّس .. له .. بظهره .. فامتلأ بها .. حتى لم يبق .. فيه .. موضع .. لرام .. فسقط عند قدمي الرسول .. مغشيا .. عليه .. وأنت .. أنت أيضاً .. يجب .. أن .. تسقط .. قبل أن .. يقتلوا .. عقيدتك .. أو يحصدوا .. اخوانك .. أنت .. أيضاً !!

المحقق الآخر : لم أر في حياتي مثل هذه الصلافة وهذا العناد .. إنه لا يخفف من وقع الضربات حتى بكلمة آه ..

إبراهيم : (بصوت يزداد بعدا ، وتقطعا) : (ما كان .. الله .. ليذر .. المؤمنين .. على .. ما أنتم .. عليه .. حتى يميز الخبيث .. من الطيب .. وما كان .. الله ليطلعكم .. على .. الغيب).

رجل التحقيق : بعضا من قطرات التيزاب على ظهره ويديه .. وإذا لم يعقل .. فعليكم بوجهه .. سوف لا يعرفه أهله إذا انقلب إليهم ..

إبراهيم : (ليمحص .. الله .. الذين .. آمنوا .. ويمحق .. الكافرين ..).

(ينهض الرجلان الآخران ويشتركان في جلد إبراهيم).

رجل التحقيق : اضربوه بقوة .. خائن .. قذر .. متآمر .. نعم .. نعم .. نعم .. على بطنه .. هنا كلا .. إلى أسفل .. قليلاً بعد .. أحسنت ..

إبراهيم : (يكاد يغمى عليه) قال .. عبد الله .. بن .. جحش .. يوم .. أحد .. اللهم اني .. اقسم عليك .. ان ألقى العدو .. غدا .. فيقتلوني .. ثم يبقروا .. بطني .. ويجدعوا أنفي وأذني .. ثم تسألني فيم ذلك ؟ فأقول : في ..... ك.

(يسقط مغشياً عليه ، وابتسامة تستعصي على الفهم تغسل وجهه).

(تختفي غرفة التحقيق فجأة ، بالتعتيم ، وتسلط الإنارة على شباك عتيق ، في أحد ممرات السجن نفسه .. تقف زوجة إبراهيم ، وهي تحمل طفلها ، قبالة عريف يشارف الستين يقلب صفحات دفتر أصفر ..).

الزوجة : قبل ليلتين فقط ، بعد الساعة الواحدة ، أقسم لك أنه بريء ..

العريف : الثلاثاء .. الثلاثاء .. إبراهيم فوزي عبد الهادي .. إبراهيم فوزي .. (يستمر على تقليب صفحات الدفتر).

الزوجة : أريد أن أعرف فقط أين هو .. لعله يحتاج إلى شيء ؟

العريف : ليلة الثلاثاء .. يعني قبل يومين .. لحظة ، لأفتش في القوائم الملحقة (يخرج من أحد الأدراج أمامه رزمة من الأوراق ..).

الزوجة : أسأل الله أن يستر عرضك ولا يريك أي مكروه.

العريف : (دون أن يرفع نظره) آمين ..

الزوجة : ألا يجوز انهم أطلقوا سراحه لحظة تبين لهم أنه بريء ، ووضعوه في مكان ما لاستكمال الإجراءات ؟

العريف : يجوز .. ولكن .. دقيقة ، ها هو ذا ، في آخر القوائم الملحقة : إبراهيم. فوزي .. عبد الهادي (بعد لحظات من الصمت ، وبنظرات تحمل معنى غير واضح) لقد أفرج عنه.

الزوجة : (تنكب على يد الرجل لتقبلها ، مبللة إياها بالدموع ، فيسحبها العريف) أسأل الله أن يستر عرضك ، ولا يريك أي مكروه .. سأعود إلى البيت فلعله يكون قد سبقني إليه ..

(تغادر المكان ..)

العريف : لحظة .. يا .. هذه هي صرة ملابسه ، خذيها معك .. فقد نسيها !! (لشدة فرحتها ، وتلهفها ، تحتضن الصرة .. غير مكترثة لصراخ الطفل ولا للبقع الحمراء التي تلطخ الملابس المعقودة دونما عناية .. وبعد دقيقة أو دقيقتين ، وعندما تكون الستارة قد أسدلت تماماً .. نسمع صرخة وحيدة .. لكنها حادة ، قاسية كالسكين .. ثم يطبق بعدها السكون) !!

الزلزال

(المشهد الأول)

(مشارف احدى مدن اقليم يونان في الصين .. تبدو عن بعد في خلفية المسرح مجموعات كثيفة من الخيام وجماهير حاشدة من الناس من مختلف الأعمار ..في مقدمة المسرح يقف حاكم المدينة العسكري ومسؤولها السياسي ومدير دائرة الارصاد .. الى الجهة اليمنى من المسرح يبدو الطرف القريب من المدينة .. أما الجهات الأخرى فتغيب عن الأنظار ..
الوقت: صباحاً ..

المسؤول السياسي: امتأكد أنت من أن جميع السكان قد أبلغوا بالنبأ ؟

الحاكم العسكري: (بثقة بالغة) تماماً .. كما تأكد جهاز الرصد من أن الزلزال سيضرب المدينة في الساعة العاشرة وثلاث وعشرين دقيقة من صباح هذا اليوم ..

مدير الارصاد : (مصححاً) العاشرة وثلاث وعشرين دقيقة وثانيتين ..

الحاكم العسكري : لقد أصدرت أوامري الى دار الاذاعة الاقليمية بإعادة إعلان النبأ بين دقيقة وأخرى .. والالحاح على أبناء البلد أن يهرعوا بما يستطيعون حمله ، وبأسرع ما يمكن ، للتجمع في الجهة الشمالية من المدينة .. حيث أقيمت ، وبدقة بالغة، مخيمات اللجوء المؤقت ، وأعدت كافة المتطلبات والخدمات..

المسؤول السياسي: ولكن ألا يجوز أن يكون هناك مواطنون لم يتسنّ لهم الانصات الى المذياع ، فلم يتح لهم بالتالي سماع التحذير حتى ولو أعلن مائة مرة !!

الحاكم العسكري : (بثقته المعهودة) من أجل ذلك جندت عدداً من السيارات كي تطوف في الشوارع والأحياء وهي تحمل مكبرات الصوت وتذيع التحذير بين لحظة وأخرى ..

المسؤول : هناك جهات في المدينة ، لا سيما في مناطق المرتفعات الوعرة التي يمكن أن تكون أكثر تعرضاً للزلزال المتوقع ، ليس بمقدور السيارات أن تصلها..

مدير الأرصاد : لا توجد لديّ توقعات .. إنما هي التأكيدات التي لا تخطئ !!

المسؤول : (مقاطعاً) انني اسأل الحاكم ..

الحاكم : اطمئن يا سيادة المسؤول فقد نظمنا ، وبسرعة فائقة ، كتائب من الشباب

لكي تغطي المدينة كلها بالتحذير ، من أجل تلافي أي إهمال أو نسيان قد يحدثان ومن أجل الاتصال المباشر بالمواطنين واطلاعهم على التفاصيل وإعانتهم على التوجه إلى المعسكر الشمالي..

المسؤول : هذا جيد .. ولكن ..

الحاكم : (بقلق) ولكن ماذا ؟

المسؤول : ألا يوجد احتمال ، ولو بنسبة ضئيلة جداً ، واحد بالمائة مثلاً ، في أن الزلزال سيمتد لكي يضرب منطقة المخيم نفسه ؟

الحاكم : حتى ولو ضربها ، فان الضحايا في هذه الحالة ستكون أقل بكثير

المسؤول : أحب أن أؤكد لك بانني لا أريد أن نقدم هنا ضحية واحدة !!

مدير الارصاد : اذن فتأكد يا سيادة المسؤول إن احتمالاً كهذا لا وجود له البتة .. إن أجهزة الارصاد التي ابتكرناها أخيراً قد أعطتنا ، وبشكل دقيق للغاية ، حدود المساحة التي سيشملها الزلزال ، ودرجة الهزّات الأرضية بمقياس (رختر) (بتفاخر) وإن كنت أطمع إلى أن نبتكر مقياسنا الخاص بنا .. فقد أصبح رختر مودة قديمة ..

المسؤول : (ضاحكاً) وإذا حدث وأن أخطأت أجهزتك واهتزت تأكيداتك ؟!

مدير الارصاد : (ضاحكاً هو الآخر) ارفع عني تقريراً لكي يرسلوني إلى أية مدينه يرتأون عقابها .. ولكنك يا سيادة المسؤول ، وإذا أردت الجدّ ..

المسؤول : (يعود إلى تجهّمه) أنا لا أقول إلاّ جداً ..

مدير الارصاد : .. إن العلم لا يمكن أن يخطئ .. فقد تخطئ أنت ..

المسؤول : أنا ؟!

مدير الارصاد : عفواً .. أقصد انني قد أخطئ وقد يخطئ السيّد الحاكم ، أو أي انسان آخر في هذا العالم الواسع .. كلنا مستعدون للخطأ في أية لحظة .. مستعدون لطرح احتمالات ليس فيها تأكيد العلم ويقينيته الجازمة وحسمه .. ذلك ان الدماغ البشري نفسه ، وعلى العموم ، يحمل في تركيبه احتمالات الخطأ والصواب .. أما العلم .. فحاشاه . لقد قالت لي أجهزة الأرصاد ان زلزالاً سيضرب المدينة في الساعة العاشرة وثلاث وعشرين دقيقة وثانيتين .. يعني أنه سيضربها في الساعة العاشرة وثلاث وعشرين دقيقة وثانيتين ..

الحاكم : (محاولاً احراجه) أو ليس العلم من معطيات العقل البشري نفسه ؟

مدير الارصاد : إلى حد ما .. ولكن هناك جوانب أخرى من بنيته الحاسمة تصنعها ظروف

موضوعية تأتي من الخارج .. إن العلم هو حصيلة انعكاس الموضوع على الذات وبالتالي فانني أستطيع أن أذهب إلى المدى الأبعد فأقول ان الدماغ البشري لا فضل له مطلقاً فيما يقول العلم ..

الحاكم : حتى مجرد كونه خادماً مطيعاً يلبي أوامر الموضوع وينسّق معطياته ؟

مدير الارصاد : إلى حد ما .. ولكن الكلمة النهائية تبقى للمادة ..

الحاكم : ولكنك ها أنت ذا ترى المادة .. قشرة الأرض المادية .. تتأرجح تحت أقدامنا وتحيل نشاطنا الحضاري إلى ركام في لحظات ..

مدير الارصاد : ليس هذا ذنب العلم .. إن مهمة العلم هو أن يقول لنا ما الذي سيحدث وعلى وجه التأكيد .. أما ما عدا ذلك ..

المسؤول : (الذي كان منهمكاً في الحديث مع رجالات آخرين يلتفت فجأة) دعونا من جدلكما البيزنطي فهنالك ما هو أهم منه بكثير.. ما هو حجم الخدمات التي ستقدم للسكان خلال فترة إقامتهم في المعسكر ؟ وما هي طرائق تقديمها بشكل يكفل النظام وعدم الفوضى ؟

الحاكم : لقد رتبنا كل شيء يا سيادة المسؤول .. وانني أستطيع أن أقول ، وليسمح لي الرفيق مدير الارصاد ، بأن كافة الأنشطة الاجتماعية التي نعتمدها هنا إنما تستمد مؤشراتها من النظام الاجتماعي السائد في حدوده الشاملة .. وهي مؤشرات علمية لا يمكن أن يمسّها خطأ ..

المسؤول : عدنا ثانية إلى مسألة الخطأ والصواب.. باختصار .. هل أن الطعام والماء والخدمات الطبية والمواصلات وسائر المستلزمات الأخرى تكفي سكان المدينة قاطبة للمكوث في هذا المعسكر أسبوعاً كاملاً قد يمتد إلى أسبوعين أو ثلاثة؟

مدير الارصاد : تأكيدات الارصاد تشير إلى أن المدى الأقصى هو عشرة أيام وثلاث ساعات فحسب ..

المسؤول : إنني أتحدث إلى الحاكم .. هل أن ما لديكم يكفي ؟

الحاكم : (بثقة) وزيادة !!

(يهرع إلى حيث يقف هؤلاء المسؤولون شاب يضع على صدره شارة خاصة مكتوب عليها قائد فرقة رقم ١٤)

الشاب : إننا يا سيادة الحاكم نعاني ..

(يسرع اليه الحاكم فيأخذه جانباً قبل أن يتم حديثه ..)

الحاكم : لا ترفع صوتك أكثر مما يجب أيها الرفيق .. إنك بحضرة المسؤول السياسي..

الشاب : ولكننا نعاني من ..

الحاكم : (مقاطعاً) قل ما شئت ولكن في إطار الانضباط المطلوب في مواقف كهذه ..

الشاب : (يخفض صوته) إن مقادير الطعام التي وصلت فرقتي لا تكفي سوى لوجبة واحدة ، فكيف بالوجبتين الأخريين ؟

الحاكم : (مرتبكاً) ارجع أنت من حيث أتيت وسأتصل أنا بعد قليل بقائدي الفرقتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة لكي يعينوكم ، ريثما تتيسّر المقادير الكافية ليوم غد ..

الشاب : شكراً سيادة الحاكم

(يحاول أن يمرّ من المكان الذي يقف فيه المسؤول فيمنعه الحاكم ..)

الحاكم : من هنا أيها الرفيق لكي تصل إلى فرقتك من أقرب الطرق (يرفع صوته) أعتقد أن كل شيء يجري على ما يرام؟

الشاب : (وهو يبتعد) على ذمة الفرقتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة!!

(يعود الحاكم إلى حيث يقف المسؤول و مدير الارصاد)

الحاكم : (وهو ينظر إلى ساعته) ثمة دقائق فحسب تفصلنا عن الزلزال..

مدير الارصاد : (ناظراً هو الآخر إلى ساعته) ثلاث دقائق فحسب..

المسؤول : هل تعتقد أنه سيأتي على المدينة بأسرها ؟

مدير الارصاد : كيف ؟ إن مؤشرات الرصد تبين لنا أنه سيضرب المواقع التالية على وجه التحديد (يمد يده إلى جيبه ويستخرج خارطة يفتحها ويؤشر عليها) المنطقة ٢م ، مصنع النسيج القطني، مجمع المساكن العمالية ، حدائق الشعب ، الساحة ٢٥ب، ثلاث كيلومترات من الطريق العام الذاهب إلى شنغهاي (يطوي الخارطة ويعيدها إلى جيبه ثم يفكر ملياً ويقول) ومعنى هذا أن ما يقرب من واحد على ستة من المدينة هو فقط الذي سيصيبه الدمار الكلي .. وثمة جهات أخرى ستلحق بها اصابات جزئية (ينظر إلى ساعته بعصبية)

(يقف الرجال الثلاثة ومن ورائهم حشود الناس في حالة قلق وترقب وهم ينظرون إلى المدينة التي لا يبدو منها إلاّ جانبها القريب .. ونستمع إلى عشرات من مكبرات الصوت وهي تطلق تحذيراتها وتعليماتها وتطلب من الأهالي الابتعاد عن مناطق الخطر .. ثم ما نلبث أن نلمح طرف المدينة المرئي وهو يهتز بهدوء أوّل الأمر.. ثم بعنف رهيب بعد لحظات .. يتوقف الزلزال ، فإذا ببعض المساحات المرئية من المدينة قد غدت خراباً..) ..

مدير الارصاد : (وهو لا يتمالك نفسه) إنه العلم أيها الرفيق المسؤول .. تلك القوة الحاسمة التي لا تضل .. إن بإمكانكم أيها الرفيق أن تتخذوا الخطوات التالية وأنتم مطمئنون إلى أن زلزالاً آخر لن تشهده المدينة طيلة ما تبقى من هذا العام..

المسؤول : شكراً .. وسأتصل الآن ببكين لإعلامهم عن نجاح التوقعات ونجاح الخطط .. (يذهب) ..

مدير الارصاد : (بنبرة الاحساس بالانتصار) ستكون الخطوة التالية أيها الرفيق الحاكم هي ابتكار جهاز جديد يمنع وقوع الزلازل أساساً..

الحاكم : (بدهشة بالغة) يمنع وقوع الزلازل ؟

مدير الارصاد : (يمط الحروف مطاً وهو يرسل نظرة حالمة إلى الأفق البعيد) نعم .. يمنع وقوع الزلازل.. يوقفها عن التدمير .. يلجم فمها الرهيب ، فلا ينفتح بعدها لكي يلتقم القرى والمدن ، ويزدرد المنجزات ، ويدمّر الحضارات .. إنه قد آن الأوان لابتكار ذلك الجهاز..

الحاكم : ولكنها مسألة تتعلق بتركيب الكرة الارضية.. بتكوين العالم كله !! هل بمقدورنا أن نغيّر بنية العالم؟

مدير الارصاد : إذا قال العلم انني سأغيرّ بنية العالم فانه قادر على أن يفعل ، أؤكد لك هذا أيها الرفيق .. وليس علينا إلاّ أن نهرع كجنود مخلصين لتلبية أوامره..

(يعود المسؤول السياسي وهو يعلق على شفتيه ابتسامة عريضة)

المسؤول : (مخاطباً مدير الارصاد) لقد اتصلت بالعاصمة وعرضت لهم التفاصيل فعادوا بعد دقائق لكي يبلغوني قرار ترقيتك ونقلك إلى بكين نفسها كمشرف عام على أجهزة الارصاد في الدولة

الحاكم : (بشيء من الغيظ) تهاني القلبية ..

– ستار –

(المشهد الثاني)

(مشارف الجهات الجنوبية الشرقية لبكين .. تبدو عن بعد في خلفية المسرح مجموعات كثيفة من الخيام وجماهير حاشدة من الناس .. ومن مختلف الأعمار .. إلى الجهة اليسرى من المسرح يبدو طرف المدينة القريب وقد أصبح ركاماً .. أما الجهات الأخرى فلا نكاد نراها .. في مقدمة المسرح يقف عدد من كبار المسؤولين : الحاكم العسكري ، المسؤول السياسي .. مهندس أرصاد ..)

المسؤول : تلك كارثة ما كنا نتوقع عشر معشارها .. لقد عرفت الصين الزلازل أكثر من مرة .. لكن هذه الضربة كانت أقسى مما يجب !!

الحاكم : تصوّر أيها الرفيق أن الفرق التي دفعنا بها إلى المدينة الصناعية في الجنوب .. عادت بعد ساعات قلائل لكي تخبرنا عن النبأ المفجع أن المدينة قد دمّرت عن آخرها ، وأن حشوداً هائلة من العمال والفنيين والمهندسين والإداريين قد أبيدوا عن بكرة أبيهم ..

المسؤول : (بتأثر بالغ) تلك خسارة عظمى سوف لا نتمكن من تعويضها في أقل من عشر سنين .. وما فعله الزلزال في الشارع التجاري الجنوبي الكبير لا يقل فظاعة عما فعله هناك ..

الحاكم : ومما زاد حجم الكارثة أن الزلزال لم يضرب مرة ومرتين ثم يكف .. بل استمر يضرب حتى أحال مساحات واسعة من العاصمة إلى ركام وأنقاض .. أيها الرفيق المهندس أما كان بمقدوركم أن تفعلوا شيئاً ؟!

المهندس : الحق أنني وعدد من كبار مهندسي الأرصاد أردنا أن نتحرك طيلة الأسابيع التي سبقت الزلزال .. أن نقوم ببحث ميداني واسع النطاق حيثما سادت المنطقة قشرة من الأرض رقيقة .. أن نتفحص هذه المواضع ونخضعها لرقابة الأجهزة الصارمة ..

المسؤول : وما الذي منعكم من القيام بهذه المهمة ؟

المهندس : كانت الأوامر تأتي من فوق .. تحمل دائماً عبارة لا تسرعوا .. يمكنكم الانتظار..

المسؤول : وممن كانت تصدر هذه الاوامر على وجه التحديد ؟

المهندس : لا أستطيع أن أدلي بشيء لم أتأكد منه تماماً ..

المسؤول : قل .. حتى ولو لم تصل اليقين .. أن فواجع كهذه ترغمنا على أن نقول كل شيء

مهما كان بعده عن الحقيقة ، فلعلنا نلتقط من بين حشد الظنون والأوهام إنارة ما تعيننا على مجابهة الحقيقة المفجعة الماثلة أمامنا بكل ثقلها وكثافتها.

المهندس : يقال أن المشرف العام للمركز كان يقف وراء هذه الأوامر !!

الحاكم : (بعصبية) بل أنه كان يصدرها بنفسه .. أليس كذلك ؟

المهندس : مجرد أقوال لا نستطيع الجزم بها قبل أن نعثر على أدلة قاطعة ..

المسؤول : عشرات الآلاف ماتوا تحت الأنقاض .. ومئات الآلاف يعانون الجوع والتشرد .. والعاصمة الكبرى تتلقى أعنف صفعة في تاريخها .. ونحن نبحث عن الأدلة القاطعة لإدانة رجل كان السبب وراء هذا كله .. ولكن قل لي أيها الرفيق المهندس ما هي دوافع موقفه هذا على وجه التحديد ؟

المهندس : لا أستطيع أن أجيبك على وجه التحديد .. وإنما أنا أنقل إليك مجرد أقوال ، انت تدري أنه في ظروف قاسية كهذه تكثر الشائعات ويسعى الناس المطاردون بالموت والتشويه والتشرد والجوع والخوف إلى البحث عن مشجب يعلّقون عليه مآسيهم كلها .. في بعض الدول المتأخرة يبحثون عن مشجب غيبي .. مشجب لا تراه العيون ولا تلمسه الأيدي .. فيحملونه بلاياهم وأوزارهم .. أما نحن فقد اعتدنا أن نبحث عن الزعماء والأشخاص.

الحاكم : (بعصبيته المعهودة) إنك تذهب وراء نزعتك الأخلاقية أكثر مما يجب .. ولكن ماذا لو أطلعتك على الأدلة التي تدين الرجل ؟

المهندس : ألا يحتمل أن يكون وراء موقفه نية حسنة ؟ أليس هو بطل زلزال يونان الشهير ؟ لماذا رقّيتموه ونقلتموه إلى مركز الارصاد أن لم تكن لديه المواهب التي تمكنه من أداء مهمته على أحسن وجه ، والمطامح التي تدفعه إلى تقديم المزيد من العطاء ؟!

الحاكم : ها أنت قد وصلت إلى النقطة التي أردت أن أقف عندها المطامح !!

المسؤول : وماذا يؤخذ على الرجل في هذا الخصوص ؟

الحاكم : قيل إن طموحه المبالغ فيه دفعه إلى أن يعكف على ابتكار جهاز يمنع وقوع الزلازل أساساً !!

المسؤول : (يضحك بمرارة) أظن أنه سيحقق ذلك ولكن بعد دمار بكين نهائياً

الحاكم : وانه وهو منهمك في جنونه ذاك ، نسي المهمة التي عهدت اليه فحص الحركات الباطنية وتحديد مواعيد الزلازل وقوتها ومداها ..

المسؤول : ولكن لماذا لم يدع الآخرين يعملون في هذا الحقل بينما ينصرف هو إلى ابتكاره

المعجز ذاك ؟

الحاكم : تلك هي بؤرة الخطيئة .. والضوء الذي ينصبّ لكي يعري لنا المطامح والنيات فيكشف دنسها وزيفها وغرورها وأنانيتها .. باختصار لقد أراد أن يسدّ الطريق على الآخرين .. لقد أراد أن يحتكر المجد وحده .. أن يظل بطل زلزال يونان وألا يسمح للآخرين بتحقيق النجاح نفسه ، ريثما يمضي هو ، من وراء أغطية المجد والشهرة، في البحث عن هدفه المجنون ابتكار جهاز يوقف الزلازل في العالم ..

المسؤول : (بحدّة) وأنت أيها المهندس ماذا تقول؟

المهندس : (يحرك يديه متسائلاً ولا يجيب ..)

المسؤول : إن المسألة مسألة ملايين الناس .. مسألة مستقبل الصين نفسها .. وليست طموح رجل واحد .. فماذا تقول ؟

المهندس : (بعد تردد) ربما !!

المسؤول : (مخاطباً الحاكم) أطلب منهم أن يأتوني به حالاً ..

(يذهب الحاكم)

المسؤول : (مخاطباً المهندس) والموت يحصد الآلاف .. والخوف يقضّ مضاجعهم لا تنفع (ربما) هذه .. نريد يقيناً ..

المهندس : افرض أيها الرفيق أنكم حصلتم على اليقين فما الذي سيجدينا وسط هذا الدمار؟

المسؤول : أتعتقد أن هذا الزلزال قد أوقف حركة التاريخ وقضى على الحياة ؟! ألم تضربنا الزلازل قبله ؟ أو لا نتوقع أن تواصل ضربنا بعده ؟ فهل نلقي السلاح ونستسلم ، أم نمارس جنوناً كجنون هذا الرجل فنحمّل العلم ما لا يطيق ونطلب منه أن يوقف بإشارة سحرية كوارث الطبيعة ، ويغيّر بأمر معجز تركيب العالم وبنية الكون ؟ أو لا ترى اننا في كلا الموقفين نجنح صوب الخرافة ونرتد إلى البربرية ؟ باستسلامنا اليائس أو غرورنا المجنون على السواء ؟ إن مديركم لا يهمنا كشخص ، وأن الأدلة التي تدينه لا تهمنا كذلك .. ولكن الذي يهمنا هو الموقف الخاطئ .. تشخيص الموقف الخاطئ كي نتحاشاه ثانية .. وأي موقف أكبر خطأ من هذه المغامرة الملعونة التي كادت أن تأتي على بكين من القواعد؟

المهندس : الحق أيها الرفيق المسؤول انني أسلّم بكل ما تقول .. ولكننا كي لا نذهب في القسوة عليه إلى مداها يجب أن نتذكر الجانب الآخر في حياته ومعطياته .. الجانب الأكثر فاعلية وإيجابية ..

المسؤول : آه لو واصل نشاطه وطموحه في إطار هذا الجانب المعقول وتحرك على طريق

الفاعلية والإيجابية ، إذن لكان بمقدوره أن ينقذ بكين كما أنقذ يونان وعلى أية حال .. فما الذي يجدينا عقابه الآن ؟ أغلب الظن أننا سنعفو عنه .. ولكننا – كما أكدت – نريد أن نشخص الداء الخبيث في موقفه المرضي الذي قادنا إلى الهلاك .. لعلنا نتحاشاه في المرة القادمة ..

(يعود الحاكم ثانية وعلى وجهه آثار الحيرة والقلق)

المسؤول : ماذا وراءك أيها الرفيق الحاكم ؟

الحاكم : لقد رفع صغار المهندسين تقريراً عن أن بكين والمناطق المحيطة بها ستتلقى اليوم أو غداً ضربات أخرى قد لا تقل عن سابقتها ..

المسؤول : وماذا عن (مديرهم) الذي يريد أن يبتكر جهازاً لوقف الزلازل في العالم ؟

الحاكم : دفنته الزلازل قبل أن يتمكن من ابتكار جهازه ذاك ..

(يلتفت المسؤول إلى المهندس ويوجه إليه نظرة ذات مغزى .. وبينما ينزل الستار نسمع صوت الزلزال العاتي وهو يضرب مناطق واسعة من بكين ..)

– ستار –

الجوع والكلمة

(حسن عبد الحميد ، نصف مثقف ، يطمح إلى أن يشتهر ككاتب ، إلاّ أنه سرعان ما يرتطم بعدم قدرته على الكتابة والتعبير .. وتمرّ السنون وهو يتمنى لو يقدر على أن يحقق الأمنية ويطرح للقراء كتاباً يحمل اسمه وبصماته .. ويوماً يدور في ذهنه خاطر ما جعل وجهه يطفح تهللاً وسروراً ، وعينيه تشعّان رضا وحبوراً .. إنه غني ، يملك الكثير ، بل أكثر من الكثير فلماذا لا ؟!)

(المشهد الأول)

((بهو استقبال واسع تلوح في جنباته معالم الترف والأبهة .. حسن يتصدر الديوان .. لا أحد غيره))

حسن عبدالحميد : (يفرك يديه بارتياح كامل وهو ينادي على وصيفه الخاص) اسماعيل

اسماعيل : (وهو يهرع من باب جانبي يفضي إلى داخل القصر ، ويقف بين يدي سيده باحترام مبالغ فيه) نعم !!

حسن : أنت تعلم يا اسماعيل مدى حرصي على الاسهام في فكر هذا البلد ، وفي إغناء حركته الثقافية ..

اسماعيل : منذ ما يزيد على العشر سنوات ..

حسن : لقد آن الأوان أن أحقق ما يطمح إليه جمهور هذا البلد الطيّب وأن أقدم له شيئاً!!

اسماعيل : (دهشاً) ما هذا التواضع يا أبا علي ؟ فأين اذن جلساتك اليومية في هذا الديوان ومناقشاتك العميقة لقضايا الفكر والثقافة مع أدبائه وفنانيه الذين يجيئون مرتين كل أسبوع لكي يتلقوا منك التسديد والتوجيه ، ويتلقفوا الدرر الغالية التي تنهال عليهم في أي موضوع طرقوه ؟

حسن : (بازدهاء خفي) هذا وحده لا يكفي ..

اسماعيل : ما الذي يكفي اذن ؟

حسن : إن الكلمات التي تقال ، سرعان ما يأكلها النسيان ، وتضيع .. لكنها ما أن (تدوّن) حتى تكتسب صفة الخلود ، وتبقى بعد موت صاحبها مئات السنين،

امتداداً لفكره ووجوده ، تحمل انعطافات روحه وبصمات شخصيته..

اسماعيل : (يبدو أنه لا يدرك شيئاً)؟!

حسن : أريد أن أكتب فكري هذا الذي أضيّعه مساء كل يوم على الذين يستحقون والذين لا يستحقون ، فلعل من يجئ في مستقبل الأيام فيدرك عمقه وأبعاده !!

اسماعيل : أنا حاضر يا سيّدي .. لحظات والحبر والأوراق أمامك.

حسن : ليس هذا الذي طلبتك من أجله ..

اسماعيل : ماذا اذن ؟

حسن : اذهب إلى صديقنا يونس عبد الرحمن فقل له ان حسن يدعوك لأمر مهم ..

اسماعيل : أتعتقد أنه يقدر على استئناف أمسياته هنا بعد انقطاعه الطويل من أجل إنجاز بحثه (خطوات في المصادفة والنظام) ؟ ألم يعتذر عن المجيء منذ ستة أشهر، قائلاً انه سيعود لمواصلة جلساته هنا ريثما ينجز بحثه ؟

حسن : (بنفاد صبر) ما هذا الذي قصدت إليه ، إنما أريده لمقابلة عاجلة لا تعدو ساعة أو ساعتين، يعود بعدها لمواصلة عمله ..

اسماعيل : خمس دقائق وتجده أمامك !!

(يخرج)

حسن : (يغادر مقعده في صدر الديوان ويتحدث إلى نفسه) عشر سنوات وأنت تلقم الفضاء كلماتك .. ألا يحق لك مرة واحدة أن تضعها بين دفتيْ كتاب لا يضيع ..؟ إنهم جميعاً يشهدون لك بحسن الحديث ، وبراعة الحوار ، وتملّك ناصية المناقشات وتنويع الجدل وإغنائه ، والاسهام في كل موضوع على امتداد المواضيع .. لكنك لم تستطع أن تثبت لهم ، حتى الآن ، أنك قدير على أن تكتب كلماتك ، وتؤلف بين أفكارك وتخرج عليهم بعمل دائم باق لا يضيع مع الزمن كما تضيع الكلمات وهي تغادر اللسان ممتزجة بدخان السكاير ، وما تلبث أن تتبدد في الفضاء (يشعل سيكاره وينفخ دخانها بأسى عميق) .. لقد عزّاني أحدهم يوماً ، لا أدري جاداً أم هازلاً ، إن الكلمات المقولة هي الأخرى لا تضيع ولا تفنى .. فما دامت الأصوات طاقة ، والطاقة هي جوهر المادّة وتحليلها النهائي ، كما أثبت العلم .. فانها لن تفنى .. تنطبع موجاتها على المواد والأشياء ، وتدوّم في الفضاء إلى ما لا نهاية .. ولكنني قلت له وماذا يجدي هذا ؟ إن بامكاني أن أعتمد حفنات من ثروتي المكدسة لشراء أدق أجهزة التسجيل ، وأثّبت فيها أحاديثي ، وأحبس كلماتي فلا تفلت مني .. ولقد فعلت

هذا أكثر من مرّة ، ولكنه لم يشبع رغبتي العميقة في أن أكتب وأدوّن وأخرج كتاباً يقرؤه الناس في المكتبات والنوادي ، ويدور في الأسواق (يرفع صوته) آه لو أقدر على هذا ..

(يدخل أحد الخدم وقد سمع صوته)

الخادم : هل طلبت شيئاً يا سيدي ؟

حسن : (وقد فوجئ) احضر لي جهاز التسجيل من غرفة الاستراحة ..

الخادم : حالاً

(يجلس حسن عبد الحميد إلى منضدة جانبية في زاوية الديوان ، بعد لحظات يستلم الجهاز ويضعه قريباً منه .. ثم يديره .. تُسمع أصوات مختلطة لأكثر من متحدث ثم ما يلبث أن يبرز صوت حسن من بينها حادّاً متوتراً)

الصوت : قلت لكم مراراً ، أن الثروة لا تقيم سداً بوجه الفكر ، وأن المال الكثير لا يصدّ أصحابه عن أن يكونوا – إذا أرادوا – مفكرين وفنانين !!

صوت آخر : ولكن الحديث أللبق يا أبا علي غير الكتابة والابداع .. ما أكثر الذين كانوا يتألقون في المجالس ، وهم يتحدثون ويناقشون ويتنقلون بين المواضيع المطروحة بخفة ورشاقة تدعو إلى الإعجاب .. لكن أيا منهم لم يستطع يوماً أن يبدع بالريشة أو القلم عملاً كبيراً تخلّده الأيام .. إنهم يستنزفون قدراتهم في هذه الأحاديث ، ويطفون على سطح أنفسهم بكل ما يملكون في الأعماق .. فلا يبقى هنالك شيء يصلح مادة للإبداع ..

(يقفل الجهاز بمشاعر تتراوح بين الانزعاج والارتياح ، ويتحدث إلى نفسه ثانية)

حسن : هذا هو يونس عبد الرحمن المفكر الصامت ، كما يسمونه في بلدنا .. الفقير الذي لا يملك شيئاً .. لقد أوصل بالصمت فكره إلى أطراف الأرض ، بحوثاً عميقة متماسكة ، وإبداعاً متواصلاً .. وأنا لم أستطع – بأموالي المكدسة وكلماتي البارعة – أن أكتب سطرين .. سطرين فقط لإيصال وجودي إلى الناس خارج نطاق مجالسي و أسماري .. هذا هو الخصم الذي كان يتحداني دائماً بصمته أو بكلماته القليلة ، النادرة ، في الأمسيات .. ولكن مهلاً يا يونس فستجيئني عما قليل ، وسأعرف كيف أصطاد بحجر صغير عصفورين كبيرين!!

(يطرق الباب ويدخل اسماعيل يصحبه يونس)

حسن : أهلاً .. أهلاً .. أهلاً ..(إلى اسماعيل) دعنا لوحدنا وأمر الخادم أن يهيئ لنا عصيراً ..

(يخرج اسماعيل)

حسن : (مستمراً) أهلاً ، أهلاً ، أهلاً .. أهلاً ، أهلاً ، أهلاً .. أهلاً ..

يونس : أهلاً !!

حسن : أهكذا يا يونس ؟ تترك مجلسنا شهرين كاملين ونحن نتحرق شوقاً إليك ، وأصدقاؤك يسألون عنك فأكذب عليهم بأن غيابك لن يطول .. وأنا أعلم أن بحثك الأخير عن المصادفة والنظام لن ينجز قبل مرور أشهر أخرى ؟ أما كان بإمكانك أن تقطع عملك بعض الوقت من أجل أن تسهم في جلساتنا الغنية الممتعة ؟ إن مواصلة العمل سوف ترهقك ، وبدون أن تمنح نفسك (إجازة اعتيادية) حيناً بعد حين فسوف تمل العمل وربما تمجّه وتكرهه !!

يونس : مع تقديري لك ، وتثميني لأمسياتك الخصبة ، أقول لك بصراحة لقد مللت هذه الأمسيات !!

حسن : (مدارياً فشله) لا أقول لك احضر باستمرار كما يفعلون هم ، ولكن ..

يونس : (مقاطعاً بهدوء) ليس هذا فحسب ، ولكني أشعر بخناجر تنغرز في جسدي وأنا أرى إلى المهرجين وأرباع المثقفين يسيطرون على الموقف ، ويتحدثون الساعات الطوال في عملية استعراض كاذبة ، ويسكتون – بصخبهم وضجيجهم – كل صوت هادئ رصين عميق يريد أن يطرح فكرة أو ينقد رأياً .. إنك تعلم يا أبا علي أنني – أساساً – لا أحب الكلام الكثير، حتى في أشد المواضع جدية ، لأنه ما يلبث أن يرخص ، ويتسطّح ، ويغدو هذراً مباحاً .. لكنني لا أستطيع السكوت على أي تزييف يقوم به المهرجون لا لشيء إلاّ لأن أصواتهم أكثر ارتفاعاً .. (يخفض صوته الذي بلغ حد التوتر ، ويخاطب محدثه بمداراة أكثر) ولولا محاولاتك المستمرة لرفض هذه التمثيليات الكاذبة لكنت قد انقطعت عن مجلسكم منذ أعوام طويلة .. وعلى أية حال أحب أن أعرف سبب استدعائك لي في هذه الساعة من النهار..

(يجيء الخادم حاملاً العصير ثم ينسحب)

حسن : اشرب عصيرك أولاً وهدئ أعصابك !!

يونس : لا يا أبا علي ، أما تجاهك فلا يوجد غير المحبة والتثمين ..

حسن : أشكر ثقتك وأجدها مناسبة لعرض طلبي المتواضع الذي أرجو أن نحقّق به

صالحينا معاً ، وصالح هذا البلد الطّيب الذي ينتظر منا الكثير ..

يونس : تكلم يا أبا علي وأنا رهن مشورتك ..

حسن : (بصوت يسوده التوتر والتهدج) إنك تعلم ، ربما أكثر من غيرك ، إمكاناتي وقدراتي وكيف انني ألتهم التهاماً أي كتاب مناسب يصدر إلى السوق .. وتعلم كذلك أن علاقتي بالفكر والأدب ليست علاقة عادية .. مجرد التثقف البسيط وتزجية الفراغ .. فيما يسمونه ترفاً فكرياً .. إنها تكاد تكون عشقاً!!

يونس : هذا صحيح ..

حسن : وخلال الأمسيات الطويلة كنت تدرك أكثر من غيرك ، من خلال أحاديثي ومناقشاتي أن هذا العشق لم يذهب سدى وأنه ينعكس حباً متدفقاً في كلماتي..

يونس : نعم ..

حسن : إلاّ أن هذا وحده لا يكفي .. انني أريد أن أعمل شيئاً .. أن أبدع ما يتجاوز نطاق الأمسيات الزائلة .. أن أنقل عشقي واهتماماتي عبر الأماكن والأزمان .. أن أوصل نفسي ووجودي لكل الأجيال .. باختصار .. أريد أن أؤلف كتاباً !!

يونس : (مجاملاً أكثر) أرجو أن يتحقق هذا يا أبا علي ..

حسن : منذ زمان طويل وأهل بلدنا الطيّب ينتظرون مني شيئاً .. إن الخجل بدأ يحاصرني وأنا أمر ببعضهم صباح كل يوم ، في طريقي إلى محل عملي .. ويخيل إلي أنهم يتساءلون دائماً أين الذي وعدنا به منذ سنوات ؟ كل ما أرجوه يا يونس أن أكون عند حسن ظنهم أيضاً !!

يونس : ابدأ وشمِّر عن ساعد الجدّ ، وأنا رهن مشورتك ، ولن تخونك قدراتك

حسن : إنك تعلم مشكلتي الحقيقية ، فدعنا من المجاملة الآن .. وبيدك المفتاح !!

يونس : كيف ؟

حسن : أنا لا أستطيع أن أكتب !!

يونس : أمل عليّ وأنا أكتب لك ، فقط ريثما أنجز بحثي الذي تحت يدي .. أو إذا شئت دوّن أفكارك بشكل أوليّ ثم نتعاون بعد ذلك على الصياغة الأخيرة والعرض النهائي ..

حسن : لا داعي لأن أعيد عليك ما سبق وأن أكدته .. إنها عقدة يا يونس ، عقدة مستعصية ، إن القلم ، لحظة أمسك به ، يغدو كالفرس الجموح الغاضب يرفض أن أمتطيه للذهاب إلى الآفاق التي أحلم بالذهاب إليها !!

يونس : ما الذي تريده مني إذن ؟

حسن : أظن أن المسألة لا تخفى عليك بعد هذا كله ؟!

يونس : (بانفعال مكبوت) أكتب بحثاً ..

حسن : (بتلهف) نعم .. نعم ..

يونس : وأخرجه باسمك !!

حسن : أحسنت !!

يونس : والموضوع ؟

حسن : (برجاء واضح) ليكن .. ليكن .. ليكن هذا الذي تعمل فيه الآن ..

يونس : (خطوات في المصادفة والنظام)..

حسن : بالضبط

يونس : ولكن بعض الأصدقاء يعرفون انني اعمل فيه منذ أسابيع طويلة ..

حسن : نغيّر العنوان ..

يونس : ولكن ..

حسن : (لكن) هذه الغها من قاموس علاقاتنا الودّية التي أرجو أن تثمر لكلينا !!

يونس : (بسخرية خفية) تثمر لكلينا !!

حسن : (ينادي بفرح غامر) اسماعيل .. اسماعيل ..

(يدخل اسماعيل بعد لحظات)

حسن : هات دفتر الـ ..

يونس : (بالسخرية نفسها) فلتكن الأوراق من عندي كذلك !!

(يعود اسماعيل حاملاً دفتر الشيكات)

حسن : (لإسماعيل) يمكنك أن تغادر الديوان ..

(يخرج اسماعيل بينما ينكب حسن يدوّن شيئاً ما على صفحات الدفتر..)

يونس : (بمرارة أكثر) أنت قلت أنك لا تعرف كيف تدوّن ..

حسن : (ضاحكاً) لا .. هذا شيء آخر .. ألا ترى إلى القلم كيف ينطلق بخفة ورشاقة؟

(ينتزع ورقة ويسلمها ليونس)

يونس : (يقرأ) يرجى دفع مبلغ قدره ألف دينار لأمر حامل الصك .. ما هذا ؟

حسن : إياك يا أخي !! أن تظن أن هذا ثمن لذاك ..

يونس : ولكن ..

حسن : ألم أقل لك أن (لكن) هذه ملغية من قاموسنا ؟

يونس : إنني باسم الصداقة أوافق على تنفيذ أمنيتك ، إلا أنني لا أوافق على هذه ..

حسن : لا توافق على هذه لو كان في نيتي هباءة من شك في اننا نعقد بيننا صفقة تجارية ..

يونس : وماذا تسميها اذن ؟

حسن : تعاون .. تعاون متبادل .. أنا بحاجة إلى قلمك وأنت بحاجة إلى مالي .. ولن يعرف أحد .. (يدق جرس الهاتف) اسمح لي لحظة واحدة ..

(يذهب حسن إلى مكتبه وينهمك في حديث بالهاتف)

يونس : (متحدثاً إلى نفسه) عشر سنين وأنا أكتب ، وأهلي وأطفالي يأكلون الجوع .. والمرض .. والمسغبة .. والناشرون يأكلون أرباحي ويمتصون عرقي .. عشر سنين وأصدقائي الذين لا يعرفون كيف يكتبون كلمة واحدة تنهال في جيوبهم تيارات الذهب والفضة ، وأنا لا تسقط في جيبي إلاّ الحسرات والآهات .. ليالٍ طويلة تمر ، وأنا أجد بين يدي كتباً ، وبين يدي الكتب أطفال يقتلهم الجوع وزوجة يفتك بها المرض .. وكرامة الفكر تصدّني عن أن ألتمس لهم حلاً .. يونس .. أفق يا يونس .. أطفالك يهزلون ، وزوجتك تموت ، وأنت تتلهى بمصائرهم بحثاً عن كرامة الفكر هذه ؟! مراراً كان حسن يعرض عليك المساعدة وأنت ترفض فيما تعتقده إباءً وشموخاً .. يونس .. أية كرامة هذه ؟ إنك تخطو في جنبات الكون منقباً عن وقائع المصادفة والنظام .. وفي بيتك .. وعلى بعد خطوات منك تفتك الفوضى بأهلك وأطفالك .. أفق يا يونس ولو لمرة واحدة في حياتك ، ضحّ بكرامتك ولو في موقف واحد من أجل أن تشفى زوجتك ويشبع أطفالك ..

حسن : (لا يزال يتحدث في الهاتف) لا .. لا تعاند ، والغي كلمة (لكن) هذه .. انه سعر مناسب .. عشرون في المائة صافي ربح ، والصفقة بعشرة آلاف دينار .. ألا تكفينا ألفا دينار هذا اليوم ؟ بع ولا تتردد .. وبالمناسبة ، فإنني لن أقدر على النزول إلى السوق هذا اليوم .. إنني مشغول .. في أمان الله ..

(يضع السماعة) ..

يونس : (يلتفت فجأة كأنما يريد أن يفرّ من الهلاك إلى الهلاك) أهلاً .. أهلاً .. أهلاً .. أهلاً .. أهلاً ..

حسن : (وقد أدرك مغزاها) ألم أقل لك أن (لكن) هذه إذا ما ألغيناها درّت على كلينا خيراً كثيراً؟!

(المشهد الثاني)

(نفس المنظر المذكور بعد مرور ستة أسابيع .. الوقت : مساء ..)

(حسن في صدر الديوان واسماعيل يجلس إلى جانبه بتأدبه المعهود)

حسن : لقد أنجزت هذا اليوم بحثي الأول ، وسأخرجه للناس بعنوان (بحث في أسس العالم دراسة وتحليل) .. وسيدرك أبناء البلد الذين انتظروا طويلاً أني لم أخيّب ظنهم (يضحك بارتياح كامل) إياك!!

اسماعيل : وهل هذا معقول يا أبا علي .. ومني أنا بالذات ، تلميذك المخلص وخادمك المطيع ؟

(حسن يفتح الدرج ويخرج مسودّة البحث التي تتجاوز المائتي صفحة .. ويقلب صفحاته متوقفاً عند بعض المقاطع حيناً بعد حين ..)

حسن : أرجو أن يكون يونس قد شكّل كل كلمة صعبة فيه .. اللعنة على النحو إن أشباحه تطاردني في الليل والنهار ..

اسماعيل : عند الامتحان يكرم المرء أو يهان ..

حسن : سأقرأ لهم في أمسية اليوم بعض مقاطع وفصول بحثي قبل أن أدفع به إلى المطبعة .. لقد أعلمت الناشر مقدماً أنه لا داعي لأن يسرقني إذ انني لا أطمع بأي ربح ماديّ .. وما قيمة الأرباح المادية إذا وضعت في موازين الفكر والإبداع؟!

(يدخل الضيف الأول .. يسلم ويجلس في مكان ما من الديوان .. وما يلبث سائر الضيوف أن يتقاطروا حتى يمتلئ المكان ..)

حسن : (بمعنوية عالية ، لكن ملامح وجهه لا تخلو من اضطراب ، كمن يقدم على إلقاء كلمة مرتجلة) أهلاً .. أهلاً ..

الضيوف : تهانينا يا أبا علي .. وألف مبروك

رقم (١) : هذه بداية ونرجو أن تعقبها خطوات موفقة أخرى ..

رقم (٢) : (بحث في أسس العالم) أية بداية خصبة عميقة هذه ؟!

رقم (٣) : كان هذا رأيي دائماً ، أن يصبر الانسان طويلاً قبل أن يقدم على مجازفة النشر..

رقم (٤) : الذي يصبر على الحصرم يأكله عنباً ..

رقم (٥) : إننا بانتظار العناقيد فأقطف لنا يا أبا علي بعض ثمارك التي نضجت !!

حسن : ستجدون الكتاب بين أيديكم خلال شهرين .. ولكن لا بأس أن أقرأ عليكم بعض مقاطعه لأرى رأيكم فيها ، وأحب أن أعلمكم مقدماً انني غير مستعد لإعادة صياغة أية كلمة أو جملة فيه .. لقد سئمت من التنقيح المستمر طيلة الأسابيع الماضية ، والناشر يلح على أن أسرع بتقديم البحث إليه !!

اسماعيل : ملاحظاتكم للاستئناس وليست ملزمة .. ضعوا هذا في أذهانكم

حسن : (يقلب بعصبية وارتباك أوراق البحث) المقدمة كما تعلمون هي بطبيعة الحال، وكما لا يخفى عليكم .. هي .. هي .. هي (يبدو أن جدة الموقف وعدم إلمامه الكافي بموضوع البحث أفقدته قدرته المألوفة على الكلام) هي الطريق ، أو بالأحرى المدخل نعم .. أستطيع أن أقول ، بكل تأكيد ، إنها المدخل إلى البحث بكل تأكيد .. وقد وجدت أنه من الضروري ، كما تعلمون ، وبكل تأكيد ، أن أسهب فيها .. أتصور أن هذا ضروري. قلت فيها (يدير نظراته في أرجاء المكان بينما تتجمد الكلمات عند شفتيه ، وسرعان ما يتدارك اسماعيل الموقف)..

اسماعيل : حبذا لو تقرأ علينا شيئاً من المقدمة يا أبا علي ما دامت هي المدخل إلى الموضوع كله ..

حسن : (يقرأ ، وقد استعاد رباطة جأشه) إن موضوع الساعة الملحّ هو بذل أكبر قدر من الجهد البشري لإعطاء كلمة مقنعة عن بنية الكون وعن موقعنا في العالم .. لا يمكن أن تكون تجربتنا البشرية الفذة مزيجاً من نظام وفوضى في وقت واحد، ولا يمكن للقصد أن يأتلف ويتوافق مع الصدفة .. أبداً .. إما هذا وإما ذاك وهذا ما يقرره المنطق تماماً كما تقرره الرياضيات البحتة. وهكذا فقد استنفر الموضوع عدداً كبيراً من المناطقة والرياضيين في الوقت نفسه ، فضلاً عن المسيرات الطويلة التي قطعها الفلاسفة والأدباء والمتصوفة والمؤرخون عبر التاريخ بحثاً عن الحلّ المقنع .. أكثر من هذا ، إن أي بحث في مسألة كهذه ينقل الباحث شاء أم أبى ، إلى موقف شمولي تلتقي فيه كافة القدرات البشرية وتتعاضد من أجل الوصول إلى النتيجة وتمزيق الأستار عن منحنيات وجودنا وتصميم مصيرنا .. الفطرة والعقل والروح والحواسّ .. ولذلك كان من الظواهر المألوفة أن أشدّ الرياضيين صرامة ، وأكثر التجريبيين حسّية ، يتحولون في موقفهم ذاك إلى فلاسفة ومتصوفة وشعراء ، ويتحول هؤلاء إلى رياضيين وعلماء .. وتمتزج كل معطياتهم وتتناغم ، كلحن سيمفوني ، فيما يسمّيه البعض فلسفة العلوم .. ولكنها ليست فلسفة ، إنما هي ضرورة تدفع الانسان إلى حشد كل طاقاته

والتأليف بينها .. وهو يقف وحيداً ، اعزلاً ، متوجساً ، عند بوابات الكون .. واينشتاين الرياضي الشاعر ليس وحده في الطريق .. إنهم كثيرون بحيث أنهم فرضوا علي أن أخصص لهم فصلاً كاملاً في بحثي هذا ..

أحد الضيوف : هذا رائع يا أبا علي .. لقد تجاوزت ببحثك هذا طرق الأبواب التي كثيراً ما طرقها الباحثون قبلك ، الأمر الذي أخذ يلقي في نفوس القراء والمثقفين كثيراً من الملل الذي يصل حدّ القرف والاشمئزاز وهم يدخلون المكتبات فيجدون الموضوع الواحد وقد تصدّى له خمسون كاتباً !!

ضيف آخر : أنا معك في هذا ، إما أن يقدم المفكر شيئاً جديداً أو فليصمت ..

ضيف ثالث : في عصر السرعة والتغيّر هذا ، لا يطيق الناس الرتابة والتكرار ، إنهم يتشوّقون دائماً إلى الجديد ، المتغير ..

(يدخل يونس ويجلس عند أول مكان يصله ، دون أن يثير أي انتباه اليه ، إذ كان قد استأنف حضور المجلس منذ أسابيع عديدة ..)

ضيف رابع : إذا كان سكوتك الطويل ذاك يتمخض عن إبداع فكري كهذا فاننا نرجو أن تسكت عشر سنوات أخرى لكي تطلع علينا ببحث آخر ذي قيمة !!

يونس : (يسأل بصوت منخفض رجلاً بجواره) هل بدأ أبو علي يتحدث عن مؤلفه ؟

الرجل : لا يزال يتحدث عن المقدمة ، وسيظل يتحدث عنها حتى تخرج أرواحنا من خياشيمنا .. أتريد أن أقول لك الحقيقة ؟

يونس : حبذا ..

الرجل : يبدو أن تغلبه على عقدة الكتابة عقد لسانه وأفقده قدرته المعروفة على الكلام ، إذ أنه ما لبث بعد دقيقة من تقديم بحثه بكلمات مفككة مضطربة لا معنى لها ، أن أخذ يقرأ في أوراقه مباشرة ..

(حسن يلحظ يونس وهو يتحدث إلى جاره فيتجاهل وجوده)

أحد الضيوف : هذا الموقف الشمولي الذي تتحدث عنه يا أبا علي في مقدمتك هل هو بقادر على أن يعطي الكلمة النهائية في موضوع خطير كهذا ؟ هل بمقدور انسان مهما بذل من جهد ومهما استنفر من طاقاته العقلية أو الروحية أو الحسّية أن يضع يديه على (حقيقة) تفوق حجمه بملايين المرات ؟!

حسن : اسمح لي .. إذا أمكن .. انني قد قلت ، بكل تأكيد ، كما تعلمون جميعاً .. أظن أنكم ، بكل تأكيد سمعتم ما قلته قبل قليل .. عن هذا الموضوع .. ولا يوجد بكل تأكيد داعٍ للتكرار .. لأنني أريد أن .. ومع هذا يمكن أن أجيبك ، كما تعلم حدث

ذلك بكل تأكيد .. (يعود إلى بداية المقدمة ، ويقرأ) إن موضوع الساعة الملح هو بذل أكبر قدر من الجهد لإعطاء كلمة مقنعة .. إلى آخره.. أتصور أن هذا كافٍ بكل تأكيد !!

الضيف : لكن ..

يونس : إذا سمحت يا أبا علي .. إن الذي أتصوره أن فصول البحث هي التي ستعطينا الجواب على سؤال كهذا ، ومن ثم فلا داعٍ لاستباق الأحداث .. فمن خلال هذه الفصول جميعاً تتبين طبيعة النتائج التي تمخضت عن المحاولة ، سلباً وإيجاباً..

حسن : هذا صحيح بالضبط .. هذا هو الجواب بكل تأكيد ..

الضيف : حبذا اذن أن نسمع شيئاً مما تضمنته هذه الفصول .. مجرد خطوط عريضة ، حسب ما يتيح لنا الوقت ، سيما وأن الكتاب سيصلنا عما قريب و سنقرؤه جملة وتفصيلاً ..

حسن : سؤال وارد .. بكل تأكيد .. إن بحثي يضم ، بعد المقدمة التي عرفتم بعض الشيء عنها ، والتي قرأت لكم فقرات منها .. ثلاثة فصول وخاتمة .. فأما أولها فقد جاء تحت عنوان (المحاولات التاريخية) والثاني (المحاولات المعاصرة) والثالث (دراسة عن الروّاد الكبار) ، وأما الخاتمة فهي بكل تأكيد ، وكما لا يخفى عليكم ، الخاتمة هي .. هي .. تلخيص للبحث كله ..

الضيف : هنا يحق لي أن أسأل (يلتفت بخبث إلى يونس) ولا أظن أن هذا أيضاً استباق للأحداث .. اننا بصدد الفصول والخاتمة .. كل ما أريده هو أن أعرف رأي أبي علي شخصياً باعتباره مؤلف البحث ، عن النتيجة التي توصل إليها ، هو ، ومنحته القناعة الكافية ..

حسن : أية نتيجة ؟ بكل تأكيد اننا ككتاب ، كما تعلمون ، لا نستطيع أن نطرح ، هذا واضح بشكل طبيعي ، نتائج ..

الضيف : (بسخرية يشوبها التحدي) لماذا ؟

يونس : (وقد بلغ حدّاً كبيراً من التوتّر) لأن ..

الضيف : (مقاطعاً) السؤال موجه إلى صاحب الكتاب !!

حسن : لماذا ؟ (يغمر وجهه ارتياح مفاجئ) لأن المسألة ، بكل تأكيد ، وكما قلت أنت أكبر من حجمنا ملايين المرّات ..

(يونس وقد ازداد انفعاله يريد أن يتكلم ويجيب ، لكنه لا يجد الظرف ملائماً ، فيشتد توتره..)

الضيف : فعلام اذن كانت المحاولة ، وهل لمجرد أن نضرب في يمّ لا نعرف شيئاً عن شطآنه؟

حسن : بكل تأكيد ..

يونس : (يهب منفجراً ويخاطب حسن) بكل تأكيد أنك تاجر !!

(الضيوف يدهشون للموقف المفاجئ .. اسماعيل يبدو وكأنه قد ضرب على رأسه على حين غفلة ، أما حسن فيزداد وجهه شحوباً ..)

يونس : (مستمراً) وبكل تأكيد أن هناك فرقاً شاسعاً بين أن يكون الانسان تاجراً وأن يكون كاتباً مفكراً ..

حسن : (صارخاً) يونس .. أحذرك يا يونس ..

يونس : وبكل تأكيد يمكننا أن نبيع ونشتري أي شيء الاّ الفكر .. وماذا يبقى للبشرية لو تحوّل فكرها إلى سلعة تباع وتشترى ؟ إنكم تعلمون أن للدينار قوة لا تغلب في ميادين لا تحصى عدداً .. فلو حدث وأن تغلب الدينار على الكلمة أيضاً فسلام على (الانسان) فينا جميعاً ..

حسن : (والرذاذ يتطاير من فيه) ولكنك بعتَ واشتريت يا يونس ..

(الضيوف ينظر بعضهم إلى بعض بدهشة بالغة)

يونس : (وكأنه يستل خنجراً دامياً من قلبه الذي ينزف) ومن أين تعلمت هذا وآمنت به كل خلية في وجودي إلاّ من خطيئتي ، وهل كان آدم (عليه السلام) يمارس فعله وصراعه في الأرض لولا الخطيئة ؟!

الضيف : (تكسو وجهه نفس الملامح السابقة في التحدي والانتصار) لكنني لم أحظ بحقي المشروع في الجواب على سؤالي ..

يونس : ستحظى به الآن من مصدره الحقيقي .. من صاحبه

(تعلو أصوات الضيوف وتساؤلاتهم في المجلس)

يونس : (مستمراً) النتيجة التي ستقرأونها عندما يصلكم كتابي الذي بعته مهزوماً أمام صوت زوجتي والسل يمزّق رئتيها ، وصرخات أطفالي والجوع يفتك بهم ولا يدعهم ينامون .. النتيجة هو أن الجهد البشري العظيم لا يمكن أن يتبدد أو يضيع، ومهما بلغ الانسان من صغر أمام حجم الكون فإن الله سبحانه وتعالى قد وضع فيه ، بنفخة الروح الإلهية ، طاقات وقدرات لا يصدّها شيء عن المضي إلى أعماق الملكوت .. هناك حيث تتبدى لها الحقيقة كاملة من أي باب دخلت إليها.. فليس الشعر أو المنطق أو العلم أو التصوف أو التجريب سوى قطارات

مشروعة نركبها في طريقنا إلى البوابات الكبرى .. إلى اليقين الذي لا تبقى معه في عقولنا ونفوسنا ذرة من شك في أن ذلك الكون ، وهذا العالم ، يحكمهما نظام معجز لا يسمح للمصادفة أبداً أن تحتل أي جزء من مساحته الشاملة الرهيبة ، حتى ولو كان بحجم ذرة أو هباءة واحدة تهّوم في أعماق المادة وتغيب عن الأبصار .. لقد نسي أبو علي ، وما أكثر ما تنسى عمليات البيع والشراء ، نسي أن يشير إلى المقولتين أو البداهتين اللتين صدّر بهما كتابه الأول (أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون؟) (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون).. وما هذا البحث إلاّ تحليل شامل ، على مستوى الجهد البشري، لمعطيات القرآن الكريم هذه.

(الضيوف يتبادلون نظرات الدهشة والتساؤل وهم ينقلون أبصارهم بين حسن ويونس).

حسن : (بغضب مكبوت وتعبير مخيف) اخرج حالاً ، ولا تعد مرة أخرى ..

يونس : (وهو يجمع أوراق البحث التي تبعثرت) ليس قبل أن أردّ إليك المبلغ وأرجع عن (الصفقة) التي أكلت أعصابي هذه الأسابيع الطوال لكنها علمتني ، وأرجو أن تعلمكم ، أن انتزاع فكر الانسان لا يقل ألماً ومضاضة عن قتل زوجته وأطفاله ، وأن اليد التي تستل الفكر هي كاليد التي تستل الروح .. ما الفرق بين أن أسلم أطفالي لجوع لا يرحم وأن اسلّم أفكاري لرجل لا يفهم ؟! .. ان فكر الانسان هو امتداد لروحه ، إن لم يكن روحه نفسها .. انه فينا .. في صميم وجودنا .. في لحمنا ودمنا .. أسمعتم عن أحد باع لحمه ودمه ؟!

(ينزل الستار وهو يردّد ، انه فينا ، في صميم وجودنا ، في لحمنا ودمنا ، أسمعتم عن أحد باع لحمه ودمه ؟!! ..)

–ستار–

الدّيدان[1]

(جماعة من الأصدقاء يتحلّقون حول منضدة في احدى الكازينوهات الصيفية الواسعة .. ثلاث مكبرات للصوت تبدو معلّقة في أطراف الكازينو وصوت المغنية ينصبّ منها بعنف متواصل..)

نجيب : (مجففاً العرق من جبهته) أعتقد أن الجو هنا أبرد من المدينة بخمس درجات على الأقل

عادل : بسبع أو ثمان

محمود : في اعتقادي أنها لا تتجاوز الست ..

نجيب : ولكنها كما خمّنت لا تقل عن الخمس بأية حال من الأحوال

عادل : لا أرتاح للجزم .. عبارة ((أية حال من الأحوال)) هذه لا تعجبني !!

محمود : ولذلك قلت أنا ((في اعتقادي)) .. إنها تحمل معنى الظن ..

نجيب : المهم أن الجوّ أبرد هنا بكثير

عادل : ليس إلى هذا الحد .. ربما يكون هذا مجرّد شعور نفسي

نجيب : أي شعور نفسي هذا ؟! لقد كان العرق يتصبّب مني قبل أن نصل هذا المكان..

عادل : والآن توقّف .. أليس كذلك ؟!

نجيب : (ماسحاً جبهته بارتياح) بكل تأكيد

عادل : وأنا أقول لك بكل تأكيد أن المسألة ليست انخفاضاً في درجات الحرارة فنحن لم نبعد عن مركز البلد أكثر من خمسة كيلومترات .. اننا مازلنا محسوبين على البلد نفسها ..

محمود : ماذا إذن ؟! ماذا إذن ؟!

عادل : (وكأنه أكتشف حقيقة مهمة) لأننا بدأنا نستقبل المساء ..

نجيب : (بشيء من الانزعاج) لم يخف علي لك بكل تأكيد .. سأكون غبياً جداً لو لم ألحظ ذلك .. ولكن أرأيتم أمسية يوم أمس ؟

محمود : أوه .. لا تذكرنا بها

نجيب : لقد كنا نختنق حراً رغم أننا توغلنا في قلب المساء ..

---

(١) يلاحظ القارئ في هذه المسرحية تسطّح لغة الحوار وبساطتها الزائدة وذلك من أجل أن تتسق مع الجو العام للمسرحية وطبيعة تكوين شخوصها واهتماماتهم ... قارن بمجموعة (٥ مسرحيات طليعية) ليوجين يونسكو ، ترجمة : شفيق مقار (سلسلة مسرحيات عالمية).

عادل : (وكأنه قد هزم) تلك أمسيات استثنائية لا تعتمد كمقياس

نجيب : (بعصبية) أي استثناء هذا ؟ إن نصف أمسيات الصيف في مدينتنا لا تنقضي قبل أن نسبّ ونلعن موسم الصيف هذا ..

عادل : ولكن القاعدة تبقى هي القاعدة .. إن ذهاب النهار وغياب الشمس يبرّد الهواء..

نجيب : قليلاً ..

عادل : وأنا أقول كثيراً ..

محمود : (في محاولة توفيقية) هذا وذاك .. هذا وذاك ..

نجيب : إننا في شهر آب .. وفي شهر آب يستوي الليل والنهار

عادل : أعتقد أن هذه مبالغة لا تطاق .. لقد عهدتك دائماً تبالغ ..

نجيب : أرجوك ، لا تخرج كعادتك عن الموضوع ..

عادل : قل لي اذن ما الذي يجعل هذه الكازينو المكشوفة أكثر اعتدالاً من الأماكن الأخرى؟

نجيب : ها أنت تجيب على السؤال دون أن تدري ..

عادل : كيف ؟

نجيب : ألم تقل أنها كازينو مكشوفة ؟

عادل : بكل تأكيد ..

نجيب : (وكأنه أكتشف شيئاً) ان انكشافها هذا هو سبب برودتها ..

عادل : ولكن حدائق بيوتنا مكشوفة هي الأخرى ، ومع ذلك فأنها تعاني من الحرّ

نجيب : لأنها محاصرة بالبيوت من كل مكان

عادل : بيتنا – لعلمك – يقع على الشارع العام !!

نجيب : فهو محاصر اذن من ثلاث جهات .. أمّا هذه الكازينو فانها تنفتح على الجهات الأربع ..

عادل : أظنك ستقول أنها أقرب إلى القطب الشمالي بحسابات خطوط العرض ؟

نجيب : لم تبلغ بي السذاجة أن أقول هذا .. ثم أنني لست من أصحاب النظريات

عادل : أية نظريات هذه ؟

نجيب : (بخبث) التناسب العكسي بين الحرّ والزمن ..

عادل : وأنا لا زلت عند رأيي هذا ..

نجيب : وأنا لا زلت أرفض هذه النظرية

عادل : هات أدلّتك ..

نجيب : المهم انني أنا اقتنعت .. وربما محمود

محمود : (الذي كان ينظر الى الشارع العام طيلة الدقائق الأخيرة ويتثاءب بين الحين والآخر يقول كمن يباغت) انني مقتنع بما تقول تماماً !!

عادل : (بلهجة استفزازية) ما الذي قاله على وجه التحديد؟

محمود : (متثائباً) لا أدري

عادل : فكيف تؤيد رأياً لا تدري ما هو ؟

محمود : (يواصل تثاؤبه) ألستم تتكلمون عن الحرّ والبرد ؟

نجيب : بالضبط

محمود : أو لستما متفقين على أن مكاننا هذا أكثر برودة من البلد؟

عادل : هذه مسألة انتهينا منها ..

محمود : ما دمتما قد اتفقتما على الظاهرة نفسها فلا مبرر بعد هذا للبحث عن الأسباب.. (يحاول تبديل وجهة الحديث للخروج بهما من توتر النقاش ومضاعفاته) أتريان تلك السيارة الرصاصية المنطلقة كالسهم ؟

عادل : الفولغا الروسية .. لقد امتلأت بها الشوارع هذه السنة ..

نجيب : ليست فولغا بكل تأكيد

عادل : لقد رأيتها بأم عيني هاتين ..

نجيب : تنطلق بسرعة كبيرة أليس كذلك؟

عادل : بالضبط ..

نجيب : اذن فأعلم إنها ليست فولغا .. إن الفولغا ليست لها هذه القدرة على الانطلاق في أيام حارّة كهذه ..

عادل : ولكنني متأكد منها .. انني أعرف مواصفاتها جيداً ..

نجيب : (بنظرة من يشعر بالانتصار) ألا يجوز أن تكون فوكس هول الإنكليزية ذات السرعة الشهيرة ؟

عادل : (كمن أخذ على حين غفلة) فوكس هول ؟ فوكس هول ؟

نجيب : (وهو يمط كلماته) نعم .. فوكس هول ..

عادل : ولكن هناك اختلافات جذرية في الدعامة الأمامية والنوافذ المتحركة الصغيرة ..

نجيب : (مواصلاً انتصاراته) الهيكل العام .. القشرة الخارجية .. تكاد تكون متشابهة ويخيّل إليّ أن الروس قد سرقوا تصميمها .. هذا ما أكدته لعديد من الأصدقاء، أليس كذلك يا محمود ؟

محمود : (يعود من شروده مرة أخرى وهو يتثاءب) بكل تأكيد .. لقد سمعت ذلك منك عشرات المرات ..

نجيب : أما الدعامة الأمامية ففيها انحناءة أوسع نسبياً ، ولكن من يقول أنك دقّقت النظر فيها وهي تمرق بهذه السرعة كما تقول ؟

عادل : (وقد غلب على أمره) والنوافذ الصغيرة ؟

نجيب : هنالك سنتيمتران زيادة في الزاوية العليا اليمنى .. هل بمقدور مخلوق أيها الناس أن يميّز ذلك ؟

محمود : لا يمكن .. لا يمكن ..

نجيب : أرأيت ؟ انها فوكس هول بكل تأكيد ..

عادل : (مدافعاً عن موقفه حتى آخر رمق) ولكنني لم أر في حياتي فوكس هول بلون رصاصي ..

نجيب : (ضاحكاً) لماذا ؟

عادل : لأن الفولغا قد احتكرت هذا اللون ..

نجيب : هذا ليس بدليل مقنع ..

عادل : ثم أن الفوكس هول أصبحت موديلاً قديماً ..

نجيب : هذا لا علاقة له بموضوعنا

عادل : (محتداً) لو سبقتك بالقول بأنها فوكس هول لذهبت أنت إلى القول بأنها فولغا .. إنك تخالفني لمجرد المخالفة ..

نجيب : (محتداً هو الآخر) ليس ما أقوله لمجرد المخالفة .. أرجو أن تعلم ذلك .. انها فكرة أؤمن بها .. انني أعرف السيارة وأميّزها وهي تطير في الفضاء .. محمود.. أليس كذلك؟

محمود : بكل تأكيد ..

عادل : لا تكن امّعة وتوافقه على كل ما يقول

محمود : أن نجيب لا يناقش في هذا الموضوع

عادل : ولكنه مع ذلك لم يقنعني بما فيه الكفاية .. أن أدلته ليست قاطعة .. انني اعرف الفولغا جيداً ، لقد اشترى أحد اقربائي واحدة منها .. ولقد حدثني أن الوجبة التي استوردت منها تحمل جميعاً اللون الرصاصي ..

نجيب : (بهدوء) ولكن هذا لا يمنع ان يقدم أحد من أصحاب الفوكس هول على صبغ سيارته بهذا اللون..

محمود : (وكأنه قد اكتشف شيئاً) لعله يريد أن يبيعها فيوهم الناس بانها محسوبة على الفولغا

عادل : (ساخراً) لا أعتقد أن صاحبها يريد خفض ثمن سيارته ثلاثمائة دينار، فضلاً عن نفقات الصبغ ..

نجيب : في هذه النقطة أنا معك إلى حد كبير ..

عادل : ولكن أرجو ألاّ تنقلها عنّي ..

نجيب : لماذا ؟

عادل : لئلا يغضب ابن عمي (بشير) فهو يملك كما تعلم واحدة منها ..

نجيب : (بجدية بالغة) السوق هو الذي يحدد الأسعار وليس كلام الناس ..

عادل : ولكن لكلام الناس دور في ذلك .. لقد بلغ ثمن سيارة المرسيدس من نوع مائتين وثلاثين نقطة أربعة ، اثنا عشر ألف دينار فلما تناقل الناس نبأ مفاده أن المرسيدس من نوع مائتين وثمانين س قد بيعت في العاصمة بعشرة آلاف .. انخفض ثمن الثانية بلا شك

نجيب : هنالك شك في (لا شك) هذه ..

عادل : كيف ؟

نجيب : لأن السيارة المذكورة بيعت هذا اليوم بحضوري بثلاثة عشر ألف دينار ..

عادل : (وقد هزم) مهما يكن من أمر فلا تنقل كلامي هذا إلى بشير ..

نجيب : (مجاملاً) وهل جننت ؟

عادل : أشكرك جداً أيها الصديق العزيز .. ولكن قل لي بالمناسبة ما الذي فعلت بصدد القرقعة غير المألوفة التي بدأت تسمع في ماكينة سيارتك ؟

نجيب : يبدو أنك تحلم .. في ماكينة سيارتي أنا لا توجد قرقعة ..

عادل : ولكنك أنت الذي حدثتني عنها يوم أمس ..

نجيب : أوه .. تقصد الصوت الذي كان يسمع لدى كل توقف .. أليس كذلك ؟

عادل : بالضبط ..

نجيب : ولكنه ليس قرقعة .. فلا تجعلني أشك في نواياك يا عادل ..

عادل : لماذا لا قدر الله ؟

نجيب : ماذا لو انتشرت هذه الشائعة في البلد ؟ ألا تعلم أنني مقدم على بيع سيارتي هذه خلال الأيام القادمة واستبدالها بأخرى ؟

محمود : (متثائباً) فولغا ؟

نجيب : لم أحدد بعد .. ولكن ثمنها سينخفض كثيراً لو سمع الناس بهذا الذي يقوله عادل ..

عادل : ولكنني أتحدث في اطار جلستنا هذه ..

نجيب : وأرجو أن يظل حديثك في هذا النطاق .. وعلى أية حال فقد استطاع الحداد أن يقضي على الصوت ببساطة .. لقد كان التواءً خفيفاً في الويل الأمامي .. التواءً خفيفاً جداً ..

عادل : (بإخلاص مبطن بخبث) كنت أنصحك دائماً ألاّ تسرع في سياقتك .. كنت أتوسّل اليك .. ولو أخذت بنصيحتي لما اضطررت يوماً للصعود بسيارتك إلى الرصيف تجنباً لأحد المارة .. احذر السرعة في المرات القادمة .. أرجوك ..

محمود : خذ فولغا وستجد نفسك مضطراً لعدم الإسراع ..

نجيب : ولكن أرجوك يا عادل أن تبقي هذه الحادثة طيّ الكتمان إذا اردت ان تحرص على سمعة سيارتي .. إنني كما قلت لك على وشك أن أبيعها ..

عادل : وماذا ستأخذ ؟

نجيب : ذلك مرهون بوقته

عادل : ولكني أشك أن تحت يديك صيداً ثميناً لا تريد أن تكشف عنه لكي تستأثر به وحدك ..

نجيب : أتريد الحقيقة ؟

عادل : حبّذا لو ..

نجيب : وليكن الكلام في حدود جلستنا هذه ..

عادل : أعدك .. بشرفي ..

نجيب : إن السيارة التي مرقت قبل قليل من هنا والتي أردت أن تقنعني بأنها فولغا والتي هي فوكس هول ١٩٦٥ بكل تأكيد ..

عادل : (مقاطعاً) ها قد عدنا إلى الموضوع .. إن تأكيدك لا يعدو أن يكون مجرد تخمين ..

نجيب : (مستمراً) والتي أعرف رقمها جيداً .. هي السيارة التي سأشتريها .. وقد اتفقت مع صاحبها على السعر !!

عادل : (مستسلماً) ألف مبروك !!

نجيب : (بنظرة ذات مغزى) ولكن ..

عادل : (باهتمام بالغ) قلت لك أعدك بشرفي .. بمقدساتي ..

محمود : (وهو يدفع تثاؤبة أخرى) الفوكس .. هول ؟!

عادل : (وهو ينظر في ساعته) إنه لم يأت بعد لحد الآن .. ليس من عادته أن يتأخر إلى هذا الوقت ..

نجيب : ليته لا يأتي .. إنه يزعجني بأحاديثه التي لا قيمة لها ولا جدوى من ورائها ، كم الساعة عندك؟

عادل : التاسعة والنصف .. لقد مضى على مجيئنا أكثر من ساعة ..

نجيب : وأنا عندي التاسعة والنصف ودقيقتان .. يبدو أن ساعتي تسبق قليلاً ..

عادل : يعجبني اعترافك هذه المرة !!

نجيب : (ضاحكاً) ليست هذه المرة سيارة تباع وتشترى ويخشى على سمعتها ..إنها من نوع (سور) كنت قد اشتريتها قبل عشر سنين بسبعة دنانير فحسب .. أتريد الحق؟

عادل : تنوي بيعها .. وتشتري ساعة جديدة كهذه (يشير إلى يده)

نجيب : ليست كهذه بالضبط .. ولكن ساعتك إذا أردت الحق أعجبتني كثيراً .. إنها من النوع الالكتروني الذي بدأ يغزو السوق .. ما أروع أن تضغط على الزر الجانبي فيقدح ضوء ساطع يعطيك الوقت باللحظة والثانية .. بكم كنت قد اشتريتها ؟

عادل : أقسم لي الصديق الذي باعني إياها أنه سوف لا يربح فيها فلساً واحداً .. إنما هو ثمنها الذي اشتراها به من بيروت ..

نجيب : كم ؟

عادل : مائة وثمانون ديناراً ..

محمود : (وهو يكاد أن يقع فريسة إغفاءة قصيرة) سعر مناسب ..

نجيب : (غير ملتفت إليه) أتقول أنه أقسم لك ؟

عادل : لم يخلق بعد الرجل الذي يستطيع أن يلعب عليَّ!!

نجيب : (بخبث) وإذا أخبرتك بأن ابن خالتي هشام اشترى مثلها قبل ثلاثة أيام فقط بمائة وثلاثين ديناراً!!

عادل : (وقد بوغت) مثلها بالضبط ؟ لا أعتقد ..

نجيب : أرني اياها جيداً ..

(ينزعها عادل ويعطيه إياها)

نجيب : (وهو يتمعن فيها) بالضبط .. بمائة وثلاثين ديناراً .. معنى هذا أن صديقك الذي أقسم لك أنه لن يبيعها إلاّ بثمنها ، قد أخذ منك خمسين ديناراً زيادة ومعنى هذا

أيضاً أن الرجل الذي .. قل لي كم عمره؟

عادل : من ؟

نجيب : الصديق المخلص !!

عادل : خمسة وثلاثون عاماً .. لماذا ؟

نجيب : (وهو يضحك) لأنني أريد أن أقول لك بأن الرجل الذي خدعك غادر بطن أمه منذ خمسة وثلاثين عاماً .. ترى كم مرة خدعت خلال هذه الخمسة والثلاثين عاماً؟

عادل : هذه هي المرة الأولى والأخيرة .. ولن أسمح بأن تتكرر مرة أخرى ..

نجيب : وإذا قلت لك انني أنا الآخر ضحكت عليك؟

عادل : (بعصبية) لن أسمح لك .. لن أسمح ..

نجيب : (مستمراً) بل انني أنا وحدي الذي ضحكت عليك .. والصديق المسكين لا ذنب له

عادل : كيف ؟

نجيب : هذا هو ثمنها فعلاً ..

عادل : أو لم أقل لك ؟

نجيب : تقول لي ماذا ؟

عادل : أنه لم يخلق بعد الرجل الذي يخدعني

نجيب : (بخبث) بكل تأكيد .. ولكن قل لي .. ولنتكلم على مستوى الجدّ ، هل تعرف أحداً سيسافر قريباً أكلفه بشراء ساعة كهذه؟

عادل : (بنوع من السخرية) وماذا في ساعتك (سور) هذه ؟ لقد سبقت دقيقتين فحسب .. أليس كذلك ؟

نجيب : هذا على مستوى اليوم الواحد ..

عادل : (بجدية) هوه .. اليوم الواحد ؟ لا .. لابدّ أن تسرع في شراء ساعة أخرى .. أن الزمن مسألة حساسة ولا بدّ أن تكون مؤشرات حركته على درجة كبيرة من الضبط والدقة .. ألم تجد في السوق الساعة التي ترتاح إليها ؟

نجيب : هنالك أصناف عديدة ، لكن معظمها قديم .. موديل قديم .. وأنا أريدها ساعة الكترونية. إن الأجهزة الالكترونية اليوم تغزو السوق .. اننا في عصر الالكترون .. انني لا أريد أن أحسب على خط المتخلفين .. مائة وثمانون .. مائتا دينار .. فليكن .. ولكن من هو ابن الحلال الذي أستطيع أن أكلفه بهذه المهمة ؟

محمود : (الذي كان قد أغفى فعلاّ يفتح عينيه) مائتا دينار ربح على سيارتك ؟ لم أعهدك على هذا القدر من التواضع (يعود إلى نومه)

عادل : سأحاول أنا أن التقي بصديقي ذاك فلعلّه يعيننا بشيء في هذا الموضوع ..

نجيب : (باهتمام بالغ) قل له اني على استعداد لأن أدفع مائة وتسعين ديناراً ..

عادل : ومائتين كذلك ؟ أتدفع مائتين ؟

نجيب : بكل تأكيد ..

عادل : (ينزع ساعته) خذ وهات ..

نجيب : (وقد بوغت) لا .. ليست هذه ..

عادل : لم ألبسها إلاّ منذ ثلاثة أيام

نجيب : مع ذلك .. ثم انني لا أرتاح لشراء شيء من صديق ما .. إن عينيه ستظلان معلقتين به وهذا قد يسبب لي المتاعب ..

عادل : وإذا قررت أنا أن أشتري سيارتك .. هل ستظل عيناك تطاردانني ؟

نجيب : هذه مسألة أخرى ؟

عادل : على أية حال سأسعى جهدي إلى أن أدبّر لك ساعة كهذه إن لم يكن عن طريق صديقنا فبواسطة غيره .. وما أكثر المسافرين إلى الخارج ..

نجيب : حبذا لو يكون لونها أكثر زرقة من ساعتك هذه ..

عادل : تريدها زرقاء غامقة .. أليس كذلك ؟

نجيب : بالضبط

عادل : والإطار المعدني ؟

نجيب : (كمن يتذكر) أوه .. لقد كادت (المينا) تنسيني الإطار .. انني .. انني .. انني أريده ذهبياً ..

عادل : ولكن اللون الفضي أكثر انسجاماً مع الأزرق ..

نجيب : أريدها أن تغاير ساعتك بعض الشيء .. مع الاعتذار ..

عادل : ألا يكفي لون (المينا)؟

نجيب : بصراحة .. لا .. لا بدّ أن يكون الإطار متغايراً أيضاً ..

عادل : لك ما تريد ..

نجيب : ولكن ..

عادل : ماذا ؟

نجيب : لماذا لا تثبت المواصفات في ورقة خاصة ؟

عادل : لا أظن الأمر يحتاج إلى ذلك .. المينا زرقاء غامقة والإطار ذهبي ..

نجيب : مع ذلك .. ثم انني أريد أن يكون معصمها ذهبياً كذلك ..

عادل : لكن هذا سيكلفك كثيراً ..

نجيب : كم يعني ؟

عادل : خمسة دنانير .. عشرة دنانير ..

نجيب : فليكن .. ولكن أرجوك أن تثبت هذا على ورقة خاصة ..

(يمد عادل يده في جيوبه بحثاً عن قلم فلا يعثر عليه)

عادل : قلم .. رجاءً .. انني لست معتاداً على حمله إلى الكازينوهات ..

نجيب : وأنا كذلك .. محمود .. هل من قلم ؟

محمود : (الذي كان طيلة الدقائق الأخيرة يتمعّن في السيارات التي تجتاز الشارع المجاور) ماذا ؟

نجيب : قلم ..

محمود : الله .. الفوكس هول .. عادت الفوكس هول التي ستشتريها .. انظر كم هي سريعة ونظيفة ..

نجيب : قلت لك أريد قلماً ..

محمود : لماذا ؟

نجيب : لتثبيت مواصفات الساعة التي سأشتريها ..

محمود : (دهشاً) ساعة ؟ ستشتري ساعة جديدة ؟ وماذا في هذه التي في يدك؟

نجيب : سأتخلى عنها للأسف ..

محمود : ولكنها لا تزال نظيفة بعد .. يبدو أنك ستلحقها بسيارتك .. انك لا ترتاح للقديم.. تريد أن تكون أشياؤك جديدة دائماً .. أي نوع ستشتري ؟

نجيب : (باعتزاز) الكترونية !!

محمود : (يفغر فاه) الكترونية ؟

نجيب : هات القلم ..

محمود : انني للأسف لم أعتد حمله إلى هنا ..

عادل : لا داعي يا نجيب .. انني أتذكر مواصفاتك .. وأعدك انني لن أنساها وسأثبتها على ورقة خاصة حال وصولي البيت ..

نجيب : كلمة جد ؟

عادل : بشرفي .. بمقدّساتي (ينظر إلى ساعته) ولكنه تأخر كثيراً هذه المرة .. صحيح أنه أخذ في الآونة الأخيرة يؤجل مواعيد حضوره .. لكنه هذا اليوم بالذات جاوز الحدّ ..

نجيب : أتريد الحقيقة ؟ انني أصبحت لا أرتاح اليه أبداً .. ليته لا يأتي ..

محمود : لماذا ؟ إنها عشرة العمر كله ..

نجيب : صحيح .. لكنه أخذ يسبّب لنا الكثير من المضايقات .. إنه ينزعج إذا ما جرّنا الحديث إلى مواضيع عملية مهمة كهذه التي نتحدث بها اليوم بحرية وبدون مضايقات تصورّوا أنه يفضل الحديث عن الأشياء الأبعد مدى من حاجاتنا اليومية القريبة كما يحلو له أن يقول ..

عادل : (بسخرية) الفن .. والعلم .. والسياسة .. والغزو الفكري .. والأصالة العقائدية .. الرواد الأوائل الذين صنعوا تاريخنا .. ومخططات الهدم والتخريب الأخلاقي ..

محمود : (يتنفس اللهجة) والقضية الفلسطينية .. وحملات التصفية ضد الفدائيين

نجيب : اننا نسمع هذا ونقرؤه ونشاهده في كل مكان .. في الراديو والسينما والصحف والدوائر .. أليس من حقنا أن نرتاح هنا قليلاً وننصرف لمعالجة القضايا الأكثر مساساً بحياتنا؟

عادل : في هذه النقطة أنا معك تماماً .. ولكن ذكرياتنا معه وعلاقاتنا به عميقة وبعيدة

نجيب : ولو .. فان لكل مسألة حداً .. أما هو فقد جاوز كل حدّ .. تصوّر أنه أصبح يغضب وتثور ثائرته بمجرد أن أسألك عن حاجة ما تنقصني في البيت .. وأنت تدري كم يعاني الانسان في هذه الأيام من البحث عن حاجاته..

عادل : معاناة باهظة والحق يقال ..

نجيب : تذكر يوم أمس .. كيف انني عندما أردت أن أحدثك عن المشكلة التي أخذت تشغل بالي خلال الأسابيع الأخيرة ..

عادل : (كمن يكتشف شيئاً) قضية الأخشاب .. أليس كذلك؟

نجيب : بالضبط. رأيتُ لونه يتغيرّ ويحرجني بنظرات مليئة بالازدراء كأنني أقدم على اقتراف شيء محرّم .. إنك لم تلحظ ذلك يا عادل .. ولكنني رأيته بوضوح لقد لوى بوزه احتقاراً !!

عادل : لقد كنت منشغلاً مع محمود في حديث حول قطعة القماش البنيّة التي سلّمها للخياط قبل يومين .. وسمعته يقول أن هنالك أشياء كثيرة جداً يجب أن تشغل بالك هذه الأيام .. ليس من بينها الأخشاب والموبيليات على أية حال .. إن الفلسطينيين يقتلون يا نجيب وسمعته كذلك يقول .. هنود حمر .. أو شيئاً من هذا القبيل ..

محمود : لقد ذكرتموني يا جماعة بأفلام الخمسينات العظيمة عن الهنود الحمر .. يا لتلك

الأيام .. آه..

نجيب : (غير ملتفت إليه) أتدري ما الذي قاله لي أيضاً؟

عادل : الحق انني لم أواصل الانصات إليكما كنت أتوسّل إلى محمود أن يجعل فتحة بنطاله السفلى أكثر عرضاً .. فهذا هو الاتجاه السائد .. الفتحات الواسعة!!

نجيب : لقد قال أيضاً لو أن نصف اهتمامنا هذه بحاجاتنا اليومية انصبّت على القيم والأهداف الكبرى .. لم تبل أمتنا بهذا الذي ابتليت به .. ولما استطاع أحد من الحكام أن يلعب عليها ..

عادل : أيريدنا أن ننصب خياماً في عرض الطريق ونرجع إلى عهد البداوة ثانية ؟ إنها الحياة المعاصرة تفرض علينا هذه الاهتمامات ..

نجيب : سوف لا تصدّق اذا قلت لك إنه قال شيئاً كهذا فعلاً !!

عادل : (فاغراً فاه) ماذا ؟

نجيب : قال إذا أقتضى الأمر فان علينا أن ننصب خيامنا في العراء .. أن نكف عن التطاول في البنيان .. إن التكاثر بالأشياء يحاصر قيمنا وأهدافنا .. انه يدمّر روحنا .. إن الفلسطينيين ينطلقون اليوم من الخيام لضرب اسرائيل .. ولكن خيامهم نفسها تحترق اليوم .. وا أسفاه .. وشيئاً من هذا القبيل .. أتدري .. لقد عضّ شفته السفلى وهو يقول ذلك .. حتى لقد تفجر منها الدم!!

عادل : (بانزعاج) أنا لا أفهم مثاليات كهذه .. إن عصر التصوّف والزهد قد انتهى .. وليس من المعقول أن يتنعّم الناس بتيسيرات الحياة الحديثة ونرفضها نحن .. إننا سنتهم بالبلادة أو الجنون حينذاك ..

نجيب : لم يقل هذا بالضبط .. لابدّ أن ننصفه على أية حال .. يبدو أننا لا نفهمه تماماً

عادل : (بانزعاج) أهو يملك عقلية خارقة كي يقول اشياء لا نفهمها ؟ انني لست معك يا نجيب ولا أسمح لك بأن تردّد هذا مرة أخرى ..

نجيب : أعتقد أنك بدأت تدرك لماذا لم أعد أرتاح لوجوده ..

عادل : أما أنا فاني لم أعد أريده أن يحضر .. سأضطر إلى تغيير الكازينو إذا أقتضى الأمر .. لا علينا منه .. ماذا عملت بصدد طاقم الأخشاب ؟

نجيب : (وهو يتحسّر) لم أعد ارتاح إليه .. لقد أصبح مودة قديمة ..

عادل : من ؟

نجيب : طاقم الأخشاب هذا !!

عادل : كان في نيتك أن تجري عليه بعض التصليحات ..

نجيب : قالوا لي هذا في البيت .. واتفقنا على ذلك بعد أن تبيّن لنا أن صنع طاقم جديد يكلفنا كثيراً .. كثيراً جداً..

عادل : ألفا وثلاثمائة دينار على أقل تقدير..

نجيب : بالضبط .. ولكننا عدنا فاستبعدنا الفكرة ..

عادل : لماذا ؟

نجيب : لأنني بدأت أدرك أن خطوتنا هذه لن تعدو أن تكون ترقيعاً وأنا لا اؤمن بالترقيع .. لا بدّ من الجديد مهما يكن الثمن ..

عادل : ولكن ظروفك المالية لا تساعدك على هذا .. وأنني أحذرك من المجازفات

نجيب : سأتفق مع المعرض على التقسيط ..

عادل : (بعد تفكير) اسمع .. هنالك حل آخر ..

نجيب : لا أعتقد أن هناك أي حل آخر .. ولكن قل .. فلعلّ وعسى ..

عادل : التحوّل التدريجي إلى الجديد .. سياسة الخطوة خطوة .. ستب باي ستب !!

نجيب : كيف والطاقم كله قد أخذ يعاني من الإعياء ؟!

عادل : قدّم الأهم على المهم .. هنالك مثلاً غرفة الضيوف .. والنوم .. والأكل وصالة الجلوس .. أليس كذلك ؟ طيّب .. تبدأ بغرفة الضيوف لأنها أكثر أهمية من سائر الغرف الأخرى .. تستبدل طاقمها بآخر جديد .. وريثما تجمعت لديك المبالغ الكافية زحفت إلى الغرف الأخرى ..

نجيب : (باهتمام بالغ) ولكن طاقم الغرف الأخرى يحتاج إلى تغيير ، ثم انني لا أرتاح لوجود تناقض كهذا في بيتي بين القديم والجديد .. قلت لك انني أكره الترقيع ..

عادل : لقد ذكرتني .. إن صاحبنا يقول بأن الترقيع خطيئة قاتلة .. أعتقد انكما تلتقيان في هذه النقطة ..

نجيب : أبداً .. انه يتحدث عما يسمّيه بالترقيع في عالم الأفكار .. أما أنا فأتحدث عن الترقيع في عالم الأشياء .. على مستوى الفكر فإنني مستعد أن أمارس الترقيع .. أن أبيع وأشتري إذا أقتضى الأمر خمسين مرة في اليوم .. انها مسائل غير ملموسة يا عادل .. مسائل لا مردود لها البتّة في حياتنا العملية ، أما الأشياء .. (ثم بلهجة حاسمة) لقد قررت وانتهى الأمر ، ولن تستطيع قوة في الأرض أن تصدّني عن قراري هذا ..

عادل : (إلى محمود) كفاك تحديقاً في السيارات .. ألم تشبع بعد ؟ هيّا اسهم معنا في الحديث .. اعنّا على حلّ هذه المشكلة ..

محمود : أية مشكلة ؟

عادل : طاقم الأخشاب

محمود : أوه لقد حدثني نجيب كثيراً عنه .. إنه متردد في استبداله ..

عادل : وماذا تقول أنت ؟

محمود : (لنجيب) إذا أردت أن تبيع طاقمك القديم فكم تتصوّر المبلغ الذي ستضعه في جيبك؟

نجيب : لا أكثر من مائة وخمسين ديناراً ..

محمود : طيّب .. أضف عليه مبلغاً آخر واشتر به طاقماً جديداً .. إن معرض موبيليات دجلة يصنع اليوم الأعاجيب .. إن معظم العوائل تعتمد عليه هذه الأيام وهم ليسوا بأحسن منا ..

عادل : أتدري كم يحتاج لاستكمال المبلغ ؟!

محمود : مهما يكن .. مهما يكن ..

عادل ألفا ومائة وخمسين ديناراً ..

محمود (وقد بوغت) ليس إلى هذا الحدّ ..

نجيب (باهتمام بالغ) بل وأكثر .. ومع ذلك فانني سأقدم ولن أتردّد .. لقد اتخذت قراري .. ولكن الذي أريده منكما أن تعيناني ..

عادل أنا على استعداد للبقاء هنا حتى الثالثة صباحاً لمناقشة الموضوع (ينظر إلى ساعته) أوه .. لقد جاوزت الثانية عشرة ..

محمود الثالثة والرابعة إذا اقتضى الأمر

نجيب لا أقصد هذا ..

عادل (مستمراً) ما قيمة الصداقة إن لم يسع الصديق لحلّ مشاكل صديقه .. إن لم يواصل البحث من أجل إيجاد المخرج المناسب ؟

نجيب المخرج المناسب واضح ..

عادل قله .. فلعله يحتمل مناقشة .. إنني بدأت أخشى من مجازفاتك ..

نجيب ثلاثمائة دينار فقط تقرضني إياها لمدة شهرين فحسب ..

عادل (بارتباك) ولكنني .. ولكنني ..

نجيب لا أريد أن أسمع منك عبارة (لكنني) هذه .. إنها تتعبني حقاً

عادل لكنني لا أقدر على إقراضك مبلغاً كهذا ..

نجيب (بانفعال) إنك أودعت أضعافه في البنك المركزي وانني مطلع تماماً على

رصيدك ..

عادل (بتوسّل) ولكن .. ألا يمكنك تأجيل شراء الساعة الالكترونية تلك ؟

نجيب مطلقاً ..

عادل وسيارة الفوكس هول ؟

نجيب تم الاتفاق على الصفقة وانتهى الأمر ..

عادل نرجع اذن إلى سياسة الخطوات .. لقد أثبتت نجاحها حتى على مستوى السياسة الخارجية .. ستب باي ستب !!

نجيب لا سياسة خارجية ولا داخلية .. إنك تعلم انني لا أرغب مطلقاً الخوض في مواضيع كهذه .. سأشتري الطاقم الجديد بكامله .. يعني ..

عادل (مقاطعاً) ولكنني بصراحة لا أستطيع أن أقرضك درهماً واحداً ..

نجيب لماذا ؟

عادل لأنني أعددت نقودي للأيام السود (ثم يردف كمن عثر على وسيلة للنجاة من حالة غرق مؤكدة) ثم انني قررت أن أشتري أنا الآخر سيارة ذات سعر مناسب .. إن السيارات أصبحت ضرورة لا مناص منها ..

نجيب ولكنك كثيراً ما أكدت لي أنه ليس في نيّتك الآن أن تشتري سيارة ..

عادل ومن قال لك أنني سأشتريها الآن ؟

نجيب وأنا لا أريد منك سوى مبلغ جزئي ولمدة شهرين فقط ..

عادل ألا يمكن أن تقع في يدي خلال هذه المدة بالذات سيارة مناسبة ؟ لماذا تحرجني يا نجيب ..

نجيب وأنت يا محمود ؟

محمود (الذي كان ينتظر دوره بوجل) أنا ؟

نجيب نعم .. أنت .. ثلاثمائة أو أربعمائة دينار .. لا غير .. وسأعيدها اليك خلال شهرين فحسب ..

محمود (بآلية) سأشتري أنا الآخر سيارة .. إن السيارات أصبحت ضرورة لا مناص منها ..

نجيب (بغضب مكتوم) متى ؟

محمود في اللحظة التي تقع في يدي سيارة مناسبة ..

نجيب (منفعلاً) أهذه هي الصداقة الحقيقية ؟ أهذا هو الاخلاص الحقيقي للخروج بالأصدقاء من محنتهم ؟

عادل لقد قلت لك انني على استعداد للبقاء معك حتى الثالثة للبحث عن الحلّ المناسب .. ولكن ليس بمقدوري أن أقرضك الآن .. أرجو أن تفهمني ..

محمود بل الرابعة إذا ما اقتضى الأمر .. أما الدَيْن فلا .. افهمنا ..

نجيب (وهو في أقصى حالات الغضب ينهض ويهم بمغادرة المكان) بل ابقيا حتى صباح الغد ، وواصلا جلساتكما بعد ذلك في هذا الكازينو نفسه يوماً بعد يوم .. فلعلكما تجدان لأزمتي حلاً .. ولكنكما للأسف لن تجداني بعد اليوم .. سأذهب (اليه) غداً وأنا واثق من أنه سيقرضني دونما تردّد. صحيح انني وإياه نفترق في كثير من الأمور .. ولأننا نفترق فانه سيقرضني .. أؤكد لكما أنه سيقرضني .. (يغادر المكان) ..

عادل (يمدّ شفتيه باحتقار) تعساً لصداقة عمر بكامله تفرق بينها الدنانير !!

محمود أتعتقد أنه لن يرجع أبداً ؟ كلا يا عادل إنها سورة غضب وسوف يرجع .. هذه ليست أول مرة يتخذ فيها قراراً سخيفاً كهذا ..

عادل (وهو ينهض وينهض معه محمود) وهذه ليست أول مرة تفرق فيها بيننا الدنانير ..

محمود ولا آخر مرة ..

عادل ولا آخر مرة ..

محمود تعساً لها إنها أقوى منا ..

عادل قل له .. أقنعه .. فلعله لا يعود لمثلها مرة أخرى!!

(يغادران المكان ولا يزال صوت المغنية ينصبّ في صمت الليل من أجهزة التكبير الثلاثة مكرراً المقاطع نفسها التي بدأت منذ ساعات ..)

-ستار-